زنزانة العقل

للكاتبة

فاطمة العواد

obeikandl.com

obeikandl.com

كلمتي أهمسها إهداء لكم

أمي، السيدة الرائعة العظيمة...

التي كافحت معي منذ طفولتي لتقف في وجه الجهل والرفض، من أجل أن تظل ابنتها البكر تكتب ما يجول في خاطرها دون قيود أو ضغوط. أهديك حفيدتك الأولى والتي لطالما انتظرناها سوياً، أنت الأفضل أماه ولن يكون في الكون لك مثيلاً.

إلى والدي الغالي...

بدعمه النفسي والعاطفي لا تستمر الحياة بدونك أبدا، أهديك هذه الرواية التي كتبتها في لحظات عصيبة وأخرى لينة.

إلى الفارس الأزرق...

الذي غلف عالمي كله بالنور والسعادة والرضا، في الخفاء والعلن، محققاً معي كل الأحلام المنتظرة، لا شيء شبيه لهذه الروح النقية الأبدية.

أميراتي وأمرائي، أخواتي الغاليات وجمهوري الأول، اللاتي لم يترددن لحظة في إبداء اهتمامهن بكتابتي منذ القصة الأولى ومتابعة كل جديدي، أحبكن كثيرًا، ولا شيء سيشبه شعاع أرواحكم في حياتي.

وإخوتي الشبان الرائعون ثقتكم وحبكم لي يضيء لي الدرب مدى العمر... لأجلكم كانت هذه الرواية..

وإلى كل صديقاتي الغاليات الداعمات بكل صدق، و متابعاتي ومتابعيني الأوفياء منذ سنوات محبي القصر الذهبي، وعدتكم بها وقد بررت بوعدي، أتمنى لكم أجمل الأوقات مع شخصياتي الغالية.

obeikandl.com

الفصل الأول

تحرك بسرعة

سمع آدومان هذا النداء من رئيسه في العمل الذي كان يقطع الطريق بخطوات سريعة جدًّا في المركز الهائل والذي يُعنى بحراسة كبار الشخصيات والقيام على أهم التفاصيل الخاصة بهم لضمان سلامتهم، مع تقديم أفضل الخدمات لهم.

كان السيد خوليوس يسير بخطوات وئيدة، بينما يتطاير شعره الكستنائي حول وجهه البرونزي الذي يعكس المكان الذي قيل إنه جاء منه، كان وجهه يعد مميزًا في أوروبا.

obeikandl.com

يلحق به آدومان الموظف الجديد الذي كان يفعل ذلك منذ أيام محاولاً أن يفهم جدوله، وتفاصيل صعبة يقوم بها هذا الفارس المروع، سمعَ قبل أن يعمل هنا أنه فارس مخضرمٌ قد تم ضمه إلى هذه المؤسسة التي عرف عنها النزاهة والأداء المتميز.

إلا أنه سمع أيضًا أنه شخصية كتومة، ولا يحب أن يتدخل أحد قط في شؤونه الخاصة، فهو يعمل هنا منذ خمس سنوات تقريبًا، لكن الكثيرون لا يعرفون عنه إلا النزر اليسير، وبمجرد أن احتاج إلى سكرتير حتى تم اختيار الشاب الجديد آدومان والبالغ من العمر ٢٥ عامًا كي يكون هو الشخص القائم على العمل معه.

والآن بينما يتبع خطواته السريعة، كان آدومان يفكر بإعجاب: رباه! كيف لأي شخص أن يصل إلى هذا المستوى من الإتقان، إنه رجلٌ لا ينسى شيئًا، وعقله مثل فأس حادة، والوقت عنده مثل قطعة الكعك يقسمه كيف يشاء، كل جزء يعرف أين سيستثمره.

أخبرته والدته وهي تحزم له حقائب السفر ليغادر الحي المتواضع: بني، أنت خير من يعلم أن الحياة باتت صعبة منذ اختفى أخوك الكبير، ولا أتوقع منك أن تذهب لهذه الشركة ثم تعود منها خاسرًا، بحق الله اعمل بجد وكن صادقًا وأمينًا، فأمين المكتب هو رجل يشترط فيه الأمانة بشكل أساسي.

اصطدم بالسيد خوليوس الآن فقد توقف الأخير فجأة، وسمعه يشتمه بصوته الخافت ثم استدار إليه وزمجر:

– ألا ترى طريقك؟ لا أعرف لم يُخرِجون هذا النوع من الشبان، أنتم لا تفهمون ما يجري حولكم هذه الأيام، خذ هذه الأوراق وغادر، أحتاج إلى إعادة التركيز لإتمام مهام اليوم قبل عودتنا إلى المكتب الرئيسي.

تبسم آدومان ابتسامة موجزة، عرف منذ اللقاء الأول بينهما، أنه يثير غضب السيد خوليوس لسببٍ ما، إلا أنه كان ممتنًا له كونه قبل أن يكون أمين المكتب الخاص به، من يبالي إن كان غير مولع بي.

لطالما كان آدومان مصدرًا لإثارة الانتباه وهو يغادر القاعة الخاصة بالاجتماعات، يلفت الأنظار بطوله الفارع، بشرة شديدة البياض تعكس بطريقة صادمة سواد شعره وعينيه الرماديتين، كان آدومان شخصية هادئة الطباع، يميل إلى السخرية حينما تجري أمورٌ غير ذات معانٍ أمام عينيه، وإن كان غضًا كما هو الحال مع المتخرجون الجدد؛ إلا أنه يعد شخصية رصينة متزنة.

في بزة باللون السماوي وقميص كحلي وربطة عنق عنابية تميل للون الأحمر، كان يسير مديرًا الرؤوس نحوه، لم يكن يرى أحدًا؛ فهو مستغرق في التفكير في الخلفية التي سمع أن الفارس الأمازوني قد جاء منها.

يقال إنه في الخمسين من عمره، حقاً؟ لم أُلاحظ أيًّا من هذا على ملامحه الصقيلة. وأيضًا سمع أنه عاش حياة مختلفة، في عالم مختلف، وأنه حديث عهدٍ بالتطور الذي يعيشه المجتمع الآن.

وصل إلى المقهى الذي كان يتوسط البهو الكبير، كان المقهى دائريًا يترك رائحة زكية في المكان طوال اليوم، وهناك وقف وألقى التحية:

– أهلاً كارل.. كيف حالك؟

لم يكن آدومان يحب هذا الشخص الآسيوي، فهو نوعًا ما يصيبه بالحنق لسببٍ لم يفهمه بعد..

درسا معًا، رآه عدة مرات في الجامعة إلا إنه لم يحبه قط، حالما لاحظه كارل الآسيوي القادم من منشوريا:

– هه، أتيت أيها الوطواط، ماذا تريد؟

اعتاد آدومان أن يُنعت بالوطواط من كارل والبعض هنا بلا سببٍ يفهمه، بيد أنه من شدة عدم مبالاته لم يهتم أن يعرف الأسباب.

آدومان بصوته الهادئ:

– السيد خوليوس يريد كوبًا من القهوة.

بدأ كارل يحضرها وهو يتأمل آدومان في برود مغيظ، ثم تحرش به قائلاً:

– ألم يكن حريًّا بالسيد خوليوس أن يطلب شخصًا مثلي ليكون سكرتيرًا له، ما الفائدة منك؟ أتذكرُ كيف كنتَ في الجامعة؟ على الأقل أنا أعمل هنا منذ وقتٍ أطول.

أخذ آدومان الكوب وهمس وهو يغادر:

– هذا ليس من شأنك.

استوقفه كارل بقوله:

– ألا تريد قطعة حلوى للفارس الغاضب؟ قد يهدئ هذا من سورة غضبه.

زفر آدومان بقرف وغادر، ولم تفته ضحكة الشاب هناك، وهو يعمل هنا فقط لأنه يحب ذلك، لكنه ليس في حاجة لأي من هذا، فقد قيل إن والديه يملكان الكثير من الأعمال الهامة في البلدان المجاورة.

بينما آدومان جاء من عائلة متوسطة تميل إلى الفقر، فهو لا يحب ألبتة الاختلاط بأشخاص الطبقة المخملية، هم غالبًا ما يكونون أوغادًا.

كان في طريقه إلى المكتب الأساسي الذي تصلهم فيه الطلبات للقيام بالمهام الأساسية مثل خدمة بعض رجال الأعمال، في إنجاز المهام الغامضة، مع حراسة المنشأة التي يتم طلب خدمتهم فيها.

كان عملهم معقدًا؛ فهو خليط من حراسة الأمن العام والسكرتارية أيضًا، لا يزال آدومان يحاول فهمه ولكن السيد

خوليوس ضليع في هذا الجانب، وعُرف أنه «رقم واحد» هنا، وتقريبًا في كل مكان عمل فيه.

كان يقف عند الباب مراقبًا السيد خوليوس يمرر عينيه على ملفات طلبات جديدة، من خلال عويناته المستطيلة البديعة ذات الإطار الذهبي، وفكر: من أين أتيت يا رجل؟

"هل ستظل تراقبني كثيرًا هكذا، لست مسلسلاً تلفزيونيًّا لتشاهدني".

تبسم آدومان وها نحن ذا مع تعليقاته المضحكة، دخل قائلاً ببرود:

– سيدي، قهوتك ذي ساخنة، هل وصلتنا مهمة جديدة؟

ثم جلس في المكان المخصص له، وهو في الجهة الجانبية لسيد خوليوس، بين يديه آلة الطباعة والملفات من خلفه.

كان دخان لفافة السيد خوليوس يعمي الأبصار، إلا أن آدومان أصبح معتاداً عليه، ولم يكن يشكو ألبتة.

رمقه السيد خوليوس بنظرة ما وهو يأخذ الكوب: هل يحتاج كوب قهوة سخيف الكثير منك كي تحضره.. أحمق.

آدومان وهو يجهز لطباعة بلا مبالاة تذكر:

– آسف سيدي، كارل كان لديه شيء تافه.. و..

أوقفه خوليوس برفع يده مقاطعًا حديثه وقال:

– ليس من حسن التدبير أن تشي أو تشكو من زملائك في العمل في أي وقتٍ وحين، إن لم يكن الأمر يدعو لمثل هذا الحديث فلا تبدأ به من الأساس.

أشرقت عينا آدومان إعجاباً فأجاب:

– بالطبع سيدي، سامحني..لم يكن الأمر هامًا.

خوليوس بعد أن احتسى القهوة:

– حسناً، نعم لقد وردنا طلب هام فعلاً، إنها فتاة ما، ورثت من والدها شركة، أعتقد أنها شركة خاصة بالأطعمة، لكن المشكلة ليست في الشركة ولكن في الفتاة التي لا تدري الطريقة الملائمة لإدارة هذه الأموال في هذا الوقت الحرج وكل شيء في أسوأ حال كما ذكرت في رسالتها.

آدومان وهو يأخذ الملف ليطلع عليه:

– همم، لم أظن أننا سنسافر سيدي، فيتاليا.

خوليوس من دون تفكير:

– أكره الفيتاليون.

– لم سيدي؟

– لي تجربتي مع شخصٍ منهم، أتمنى ألا نلقاه هناك، جهز أدواتك سوف نغادر غداً، واسمعني جيدًا..

كان آدومان ينتظره أن يكمل حديثه إلا أن شيئًا في وجه آدومان أوقف السيد خوليوس عن الحديث، تفرس في وجهه قليلا ثم قال له:

– هل تنام جيداً أيها الصبي؟

– نعم أفعل.

– هراء.

تبسم آدومان وقال:

– ربما ليس بما يكفي، ما الذي كنت تود قوله.

– آه تذكرت، لا أريد أن تزعجني بهزارك في القطار، إنني أحب أن آخذ قسطًا من الراحة في المقطورة، فإن لم تلتزم الصمت، فاحجز لنفسك مكانًا آخر.

– حسنًا سيدي.

استعد خوليوس لأن يخرج ثم أكمل بغضب:

– حسناً ماذا؟ هل ستحجز مكانًا آخر؟

– كلا سيدي، سوف أظل صامتًا.

رمقه خوليوس بضيق ثم استدار وغمغم بشيء عن شباب هذه الأيام، أما آدومان فطبع كل المعلومات التي كانوا في حاجة إليها وجهز الحقيبة كاملة، فتاة صغيرة ضائعة بين إرث كبير لا تعرف كيف تديره، وتهديدات مجهولة من أشخاص يؤكدون أنها ليست الوريثة الوحيدة في عدة رسائل إليكترونية مجهولة المصدر، أظن أنه سيكون عملاً شاقاً.

بعد يومين كانا في محطة القطار، السيد خوليوس يسير يحمل حقيبته البنية اللون المصنوعة من الجلد، وإلى جانبه يسير السكرتير آدومان يحمل اللفافة التي فيها موافقة الطرف الآخر على حضورهم.

كانا في ذات البزة السماوية وهي علامة الفرع البارونزي – البلاد التي ينتمي إليها آدومان – الذي يعملان فيه، بينما سيتجهون إلى فيتاليا إلى الفرع هناك الذي يرتدي موظفوه اللون الأخضر الفاتح كلون الزيتون.

كان خوليوس يتحدث عبر الهاتف المتحرك وهو يقطب حاجبيه البنيين، بينما آدومان يرتب أمتعتهما في أعلى القمرة.

سمعه يقول بجدية:

– إياكم حتى وإخبارهم بأننا سنصل، أحب الدخول على عملائنا في حالتهم الطبيعية، إن بعضهم يحبون تغيير أحوالهم بحيث لا يمكنني قراءة الحقائق كما هي.. ألم يكن كلامي واضحًا قبل لحظة؟

جلسا في القمرة الخاصة، وبقي آدومان يتفحص مظهر السيد خوليوس؛ فقميصه نوعاً ما غير مرتب، الجاكت يميل في جانبٍ ما، وربطة عنقه منحلة عن عقدتها قليلاً، شعره الغزير مغروز فيه قلمان ربما نسي أمرهما.. عن أنفه انزلقت العوينات الذهبية.

أنهى الفارس مكالمته، ثم تنبه إلى البارونزي الصامت أمامه فقال بصوت جاد:

– فيم تحديقك هذا بي؟

– سيدي، لم تبدو وكأن عاصفة مرت عليك؟! أعني نحن سنكون في حضرة أناس مهمين.

– ما الذي تعنيه؟ لقد ارتديت البزة المناسبة، وماذا يجب علي أن أفعل أكثر من هذا.

– هل تسمح لي أن أهتم ببعض التفاصيل؟

– حسنًا لا بأس.

نهض آدومان وقام بضبط الربطة جيداً، كان هذا أحد التصرفات التي اعتاد خوليوس عليها من موظفه المُجد. أنهى آدومان ترتيب الجاكيت ثم نزع الأقلام من رأسه قائلاً:

– سيدي! كيف تنسى أمر هذه الأقلام هنا.

– لا أعلم، لم أفكر بهذا الأمر مطلقًا، عليك أن تفهم آدومان أنني لم أكن أعيش بهذه الصورة من قبل، ولهذا فإن بعض التفاصيل الحضرية في بارونزا لا تزال تحيرني.

– يبدو هذا جلياً سيدي.

كان آدومان يخرج مشطه وقام بتمشيط شعر الفارس ليظهر على وجهه الانزعاج، أبعد يده معترضاً:

– توقف عن إزعاجي، أظن أن مظهر شعري على ما يرام.

– سيدي، إنني لا أقلل من قيمتك، ولكن لا يجب أن يظهر الفارس الأول الأمازوني أمام الناس بمظهرٍ غير لائق، أنت رجلٌ ذو أهمية كبرى، وإن كنت لا تدرك ذلك.

– لا أبالي بهذه الأمور، آدومان ما يهم هنا هو مستوى الإنجاز لدى المرء وليس سمعة نسمعها.

– السمعة سيدي هي نتاج تاريخ المرء حسبما أعتقد.

– نعم هذا صحيح، إلا أن بعض السمعة آدومان يكون ناشروها غير صادقين والهدف منها تزييف حقيقتهم.. دون التجريب لن تعلم الحقيقة.

عاد آدومان للجلوس في مكانه مقابله وقال:

– لم أفكر بذلك.

– لا تقرر أي شيء بخصوص الأشخاص الذين تقابلهم أو تسمع عنهم إلا بعد أن تقاسمهم بعض وقتهم فذلك يكشفهم لك يا بني.

كان آدومان ممتنًا بشدة، إنه بطريقة ما يشعر مع هذا الفارس وكأنه والدٌ له، وهو الشيء الذي يفتقده منذ كان طفلاً، فقد ربى إخوته الصغار مع والدته، وعاش حياة ممتزجة بالعمل وطلب الرزق، فلم يكن لديه من يعتبره قدوة له بعد ما حصل معه في الماضي.

وتذكر لقاءه الأول مع السيد خوليوس، تأمله مليـاً بعد أن أصبح منظره لائقاً وكان يتصفح بعض الصحف ويستغرق في القراءة بينما كوب قهوته بيده ومنظر الهيبة التي يوحي بها، يمنحه إحساسًا بالاحترام الشديد، تذكر بشكلٍ تلقائي ماضي أسود كان هو خلفيته التي أتى منها، وبشكل خاص تذكر ألبرتين، أخاه الأكبر.

الفصل الثاني

حياة ما قبل الخريف

كان يركض عائدًا إلى البيت من الجامعة وقد حمل بين يده أوراق نجاحه وتفوقه في قسم السكرتارية لهذا العام، إنه الآن في الثالثة والعشرين من عمره يبدو عليه الشباب واليُنع.. حماسة منقطعة النظير.

بكل قوة يركض، بخطوات واثقة إلى حيث كان أخوه في مزرعة الفواكه والخضار التي يعمل فيها منذ مدة طويلة، فقد وعده أنه بمجرد تخرجه في الجامعة سوف يعمل معه على الفور في ذات المزرعة، كما أن المسيو ألكسندر، مالك المزرعة، كان معجباً جداً بحماسة آدومان للدراسة، ووعد ألبرتين بعملٍ ما، بمجرد أن يتخرج الشاب الصغير.

obeikandl.com

وهكذا، دخل المزرعة مسروراً، ومن بين الأشجار الوارفة والثمار اليانعة، شق طريقه نحو مزرعة العنب حيث يظن أنه سيجد أخاه الكبير.

كان ألبرتين يقف في مكانٍ مرتفع قليلاً يراقب العمال ويدون بعض التفاصيل الإحصائية، قال حالما رآه:

– هذه الركضة الرائعة، لا بد أنها ركضة الفوز والنجاح.

ضحك آدومان حيث كان يقف وأشار بالشهادة في فرح:

– أخي! لقد نجحت بدرجات عالية وأتيت كي أبشرك بهذا، وأخيراً سأكون قادراً على مساعدتك في العمل ومصروفات العائلة.

– تعال أيها الجامعي دعني أرى إنجازاتك.

بدأ أخوه يتفحص الشهادة وقال:

– ما أجمل هذا، أنت أول متخرج في بيتنا؟ إن هذا مشرف، هيا بنا إذن فقد وعدني ميسو ألكسندر بأنه سيوظفك في حال نجحت نجاحاً حقيقاً.

تحركا معاً متجهين إلى حيث المنزل المنيف الخاص بمالك المزرعة، وفي طريقهما تذكر آدومان أنهم عاشوا حياة صعبة، فقد كانوا فقراء منذ الصغر، وحينما مرت بعض السنوات عرف آدومان أنه ابن متبنى

في ذلك البيت، ولكنه لم يشعر يوماً أنه مختلف عن إخوته بأي صورة كانت، وكان الوفاء في داخله يكبر لهذا البيت الذي منحه الكثير، فأقسم أن يبدأ في العمل.. في عملٍ جديدٍ بمجرد أن يتخرج كي يمد يد العون والمساعدة في بيتهم المتواضع.

حينما دخلا مكتب ألكسندر صاحب المزرعة، وجداه يقلب أوراقاً في يديه بينما يحادث أحدهم على الهاتف، تهلل وجهه حالما رآهما يدخلان، وضع مسماع الهاتف وقال بسرور:

– آدومان يا صغيري، لقد كبرت وأصبحت شاباً يانعًا.

– شكراً لك مونسيغ، كيف حالك اليوم؟

– أنا بخير، انظر إليك! لقد أخبرني ألبرتين أنك على أعتاب التخرج، هل هذا صحيح؟

تقدم آدومان بقلق واضعاً شهادة التخرج بين يدي الرجل ثم قال:

– لقد تخرجت بدرجات عالية، شكراً لدعمك لي مادياً خلال السنوات التي مضت.

– أنت وأخوك كابنين لي، لم أكن قادراً على إقناع ألبرت بالدراسة ولكنك حققت هذا الأمر ، إن والدتك امرأة طيبة وعليك أن تراعيها كما رعتكما.

– شكراً لك، أرجو أن أكون عند حسن ظنك.

منحه ألكسندر نظرة وقال بلطف:

– هل أنت مستعد لأن تصبح سكرتيري؟

غرقت عينا آدومان بدموع الفرح وشعر بأنه كبر أخيراً، لتتبدل نظرته بعدها إلى سعادة وسرورٍ غامرين: نعم ميسوغ.. أنا مستعد تماماً.

ثم التفت إلى ألبرتين وشاركه نظرة نجاح وفرح، فربت عليه أخوه بكل حنان وحب.

* * *

مرت الأيام بعدها في نعمة وجزل من العيش، لم يعكر صفوها شيء، لتمر بذلك عدة سنوات وليطرق آدومان أبواب الخامسة والعشرين في نجاح منقطع النظير، فقد عرف بسمعته النقية وسريرته الطاهرة، دقته وأخيرًا أمانته التي لا يشق لها غبار.

قدم خلال السنتين الماضيتين مستوى مميزًا من الأداء وعمل جنباً إلى جنب مع أخيه الكبير، فذاك في المزرعة يحصي ويكتب تفاصيل اعتادها وبرع بها منذ كان صغيراً، بينما آدومان بين المكتب والمزرعة يعمل في جد وإخلاص.

تحسنت الحالة المادية لهم وانتقل آدومان بأهله إلى بيتٍ أكثر جدارة بهم من أجل أن يدرِس إخوته الخمسة الآخرون في مدراس أفضل، وحتى إنه اشترى لوالدته قطعة من المجوهرات ليعبر عن امتنانه لها على ما قدمت له من حب وحنان وحتى مال في سبيل أن يكبر شاباً قادراً على الاهتمام بأحبته.

بيد أن الأيام بدأت تريه وجهاً كالحاً، فقد لاحظ أن ألبرت يتصرف بطريقة لم يعتدها، ذات ليلة وحينما كانا يحصيان المال الذي كُسب خلال اليوم، لاحظ أن ألبرتين يضع في جيبه ظرفًا آخر مختلفًا، قال بجدية:

– أخي! لقد نسيت هذا الظرف في جيبك؟

– هذا؟ كلا إنه خاصٌ بي.

تعجب آدومان:

– هل استملت راتبك؟ لا يزال هنالك وقتٌ لهذا.

سخر ألبرت وقال ببرود:

– إنه من تعبي الخاص، هذا مالٌ حصلت عليه من بيع التفاح والعنب الذي يقع على الأرض ولا أحد يهتم به، كنت أجمعه وأبيعه بسعرٍ أقل من المزرعة لأنه نوعاً ما غير ناضج أو قديم، وهكذا أصبح لدي هذا القدر من المال.

حدق به آدومان وكأنه صدم، تردد قبل أن يقول:

– هل أخبرت المسيو بهذا على الأقل؟

– هل جننت؟ كلا بالطبع، إنه تعبي الخاص.

– أخي! حذار، إن هذا يعد نوعاً من السرقة.. ألا تظن ذلك؟

– لا شأن لك بما أفعله، لا تنسَ أنك صغير، ما الذي ستعرفه.

حدق به آدومان متعجباً، وهل يحتاج المرء إلى عمر ليعرف السرقة حينما يراها، تأمل وجه أخاه الذي لا يزال منشغلاً بالعد، فقال في محاولة أخيرة لفهم الأمر قبل أن يتهم أخاه ظلماً:

– أخي، حسب علمي وحتى لو كنت جمعت هذا المال من الثمار المهملة، فإنني متأكد أن هذا يعد نوعاً من السرقة غير المباشرة، لم لا تستأذن المسيو ألكسندر على الأقل.

– صه! انهض وعد إلى البيت وسوف ألحق بك حالما أنهي عملي هنا.. تباً لك.

كان ألبرتين من الإخوة الذين يفرضون رأيهم بالقسر، كما أن شخصيته فيها شيء من البطش، لم يغضب آدومان قط منه لشخصيته الشرسة تلك، لكنه اليوم يرى شيئاً جديداً.

عاد للمنزل يحمل على ظهره هم الاكتشاف، فهل يتوجب عليه

أن يخبر صاحب المال عما يحصل من خلف ظهره؟ أم يصمت كي لا يخسرا كلاهما العمل هناك وبالتالي يجوعون لما تبقى من العمر.

أبقى فمه مقفلا لمدة من الزمان، وإن كان يموت كل ليلة في داخل نفسه لما يرى من الخيانة والعبث بمال ليس من حقهم. ساءت الأمور كثيراً منذ ذلك الحين فقد بدأ السيد ألكسندر يلاحظ اختفاء بعض المال من الخزانة، والجزء الذي يختفي هو الجزء الذي كان أخوه مسؤولاً عنه، حتى إنه سأله عدة مرات إن كان لديه فكرة عما يجري فأخبره آدومان أنه يظن أن أخاه لا يعلم بهذا النقص، فطلب منه ألكسندر أن يقدم تقريراً حول سير جدول ألبرتين خلال أسبوع وحسب.

فهم آدومان أن المسيو ربما قد يكون اكتشف الحقيقة أو ما شابهها، ولم يعد في غفلة كما يظن ألبرتين.. وفي هذه الليلة قال لأخيه وهما في طريق عودتهما إلى البيت مناصحاً بيأس:

– أخي.. لدي ما أصارحك به.

– تحدث.

– إن المسيو بدأ يراقبك وأنا أعني ما أقول، لقد بدأ يترك خلفك من يقتفي آثارك، بحق الله يا أخي إلا توقفت عما تقترفه في حقه بظهر الغيب، نحن لسنا سادة ولسنا ملاك أموال، فقط اعتذر منه

كي نستطيع أن ننهي هذه المسألة قبل أن تتحول إلى شيء لا تحمد عقباه.

حدجه أخوه بنظرة وجيزة وهو يجيب:

– آدومان، لقد نهيتك عن التدخل بالأمر منذ عدة أشهر خلت، والآن أيها اللعين تعود لفعلتك من جديد من تظن نفسك، هل ستبدأ بمحاسبتي وأنت رضيع؟ فقط لأنك تملك شهادة من مكان ما، من الواضح أن الغرور أنشب أظافره في عقلك الجاهل، انته عن هذا.

شعر أدومان بألم يعتصر قلبه لهذا الشتم غير المبرر، فقال كمحاولة أخيرة:

– أرجوك، أصغ إليَّ، أنت تعلم أننا لو طردنا من العمل هنا؛ فإننا سوف نموت جوعاً، أمي لا تستحق منا ذلك.

ضحك ألبرتين ملياً ثم قال وهو يتقدمه:

– إنني أعد العدة للتوقف عن العمل لديه أو لدى أي أحد آخر، كن متأكداً، سنصبح أغنياء حينما أكون جمعت القدر الكافي من تلك المزرعة، هو لديه الكثير لذا فإن الثر اليسير الذي أحصل عليه لن يؤثر ألبتة في خزانة ماله العظيمة.

– ماذا تقول؟ هل تزمع إلى أن تنهبه أكثر مما فعلت حتى الآن؟

فجأة التفت إليه ألبرتين ولطمه لطمة قاسية بظهر كفه، ألقته على الأرض واقعاً.

وضع آدومان يده على خده وظل يحدق في وجه أخيه الطويل القامة ثم قال بصوت مرتعد:

– لم فعلت هذا؟

مد ألبرتين يده وأشار في وجهه مهدداً، هذه المرة الأخيرة التي أسمح لك فيها بالتحدث إلي في هذا الأمر، إن لم تتوقف فسوف تندم بحق في المرة القادمة، أنت حتى لا تعلم قيمة ما أقوم به الآن.

تساقطت دموع آدومان وشعر أنه خسر احترامه العظيم لأخيه هذا، حيث كان يعتبر صموده وجسارته في إعالتهم منذ الصغر إحدى علامات الرجولة التي لا تتوافر في الكثيرين، وليس هذا فحسب بل كان يتمنى أن يصبح مثله ويشار إليه بالبنان بأنه قادر على الاهتمام بعائلته فيعين أمه وإخوته الأيتام.

بقي كما هو مكانه يحاول تفهم ما يجري وكيف تحول أخوه إلى هذا الرجل القاس البارد، كيف يطيب له أن يسلب مال الرجل الذي انتشله يوماً من الشوارع حينما كان يطوفها مستجدياً، كيف يرى أنه من حقه أن يعامل رجلاً مثل والده هذه المعاملة الدنيئة؟! نهض يترنح

ولم يكن يترنح بفعل خمر أسكرته أو بسبب تلك اللطمة، بل بسبب قلبه الكسير الذي يجره ذبيحاً خلفه عائداً إلى المنزل وهو يرى ظهر أخيه يسير أمامه.

كان على فراشه يترف دموعاً غزيرة، يبكي احترامًا يذوب من قلبه كما يذوب الملح في ماءٍ ساخن، وحيث يضم كفيه إلى صدره، كان يتأمل ظهر أخيه النائم بكل استرخاء، كيف السبيل كي ينهاه بالقدر الكافي الذي يجعله يتوقف عما ينتوي القيام به، رباه! إنهم مقبلون على كارثة، ولم يبرح يجِد في التفكير طوال الليل في طريقة ما قد توقف ذلك كله قبل أن يندم.

ظهر عليه الصباح وحينما أيقظته والدته ليستعد إلى العمل كان منهك القلب والبدن. صبت له كوب القهوة وهي تشير إلى وجهه في ذلك المطبخ الصغير:

– آدون، أخبرني عن هذا الأثر في وجهك.

منحه ألبرتين على المائدة نظرة موجزة مفادها إياك، أجاب حينها:

– إنه.. لا شيء.

لمست خده ثم ألقت لألبرتين نظرة غير راضية:

– ألن تتوقف عن التجبر على إخوتك ألبرت؟ آدومان صار رجلاً محترماً الآن، إياك ولطمه بهذه الصورة فإنني لن أسامحك بعد اليوم.

همهم ألبرت غير عابئ ونهض آمراً بحدة:

– إلى العمل.. هيا بنا.

غادرا بالفعل من فورهما لم يعد آدومان يتحدث كثيراً مع ألبرت فهو يصر على تجاهله، أما بالنسبة للعمل فكان آدومان يقدم التقارير المالية كما تحصل دون تزييف وإن كان يدمي قلبه منذ أسبوع لكل ليلة يشهد فيها بعينيه سرقات حقيقية وشعر أنه جبان بشدة، غير قادر على اتخاذ الخطوة اللازمة لفضح أخيه وإخبار صاحب المزرعة عما يجري حقيقة من خلف ظهره.. فيعيش يومه قلقاً ويعمل وهو ينتظر الفضيحة المرتقبة في أية لحظة، ثم يقضي ليله في سهاد مريرٍ وقلبه يعتصر في رحى العقل، بين حجر الإخلاص لعمله وبين حجر فضح أخيه الغالي، ينحره الخذلان نحراً في تفكيرٍ لا يتوقف، كيف السبيل إلى القرار الصحيح الذي يجب أن يتخذه في ما يحصل كل يوما أمام عينيه؟

* * *

في إحدى تلك الليالي، كان آدومان يرتب ملفات مهمة حينما دخل مسيو ألكسندر وهو متجهم تماماً، توقف أدومان عن الحركة وقال بقلق:

– هل كل شيء على ما يرام؟

رمقه ألكسندر بنظرة باردة وقال بصوت خافت:

– هل كنت تعلم أن أخاك كان ينهب المزرعة منذ عدة أشهر خلسة.

أسقط في يده، وقع الورق من بين يديه وبقي يحدق في وجه ألكسندر واجماً، كانت نظرته الضائعة كافية لجعل الرجل يحتدم في غضب وهو يقول:

– ربما عليك أن تحزم أغراضك وتغادر أنت الآخر.

هبت رياح الذعر على روحه وأسرع إليه ينشده:

– سيدي، أرجوك! لقد نهرته مراراً وحتى إنني حذرته من مغبة ما يفعله، بيعه بعض الثمار من خلف ظهرك أمرٌ لم أكن أقبله، استبدت بي الحيرة بشدة في مسألة أن أخبرك أم لا حيث إنني خفت أن تظنني متواطئًا معه وأنا في الحقيقية لست كذلك.

– ماذا قلت؟ بيع بعض الثمار؟! وهل تظن أن هذه التفاهة التي

يفعلها منذ سنوات تضربني، ليس هذا ما كنت أرمي إليه بحديثي آدومان.

بهت آدومان إن المسيو كان على علم بمسألة بيع الثمار المهملة، وشعر بألم يعتصر معدته، ظل عنده متجمداً، حينما قال ألكسندر بحزن وغضب:

– في الواقع ألبرتين الذي تربى على يدي منذ كان في السابعة عشرة من عمره، قد سرق محصول اليوم كاملاً مع المال الذي كنت أضعه في عهدته منذ سنوات وفر من المدينة إلى حيث لا نعلم.

هبط كتفا الشاب المسكين، إن كلمة فر هي ما قضت على روحه:

– هل قلت فر؟ من؟ أخي! متى؟

جلس ألكسندر بخيبة شديدة وبدا محبطاً بشدة ثم أجاب:

– قبل ساعة كنت أبحث عنه كي آخذ منه تفاصيل عمله لهذا الشهر، حينما أخبرني بعض العمال أنه لم يعد من الخارج، كما أنه رافق سائق شاحنة محصول اليوم لسبب ما، حتى تلك اللحظة لم يخطر ببالي شيء، حتى اتصل بي سائق الشاحنة وأخبرنا أن ألبرت غافله وسرق منه الشاحنة بما فيها ثم غادر إلى حيث لا يعلم، فقد كانا قد توقفا في محطة للتزود بالوقود.

كان جسد آدومان يتعرق من الصدمة وأخذ هاتفه المتواضع ثم ظل يتصل بأخيه مراراً بينما جسده يرتعد من الأعماق حرجًا وذهولاً لكن ألكسندر قال ببساطة:

– اسمعني يا آدومان، لقد حاولنا الوصول إليه منذ منتصف النهار ولم نستطع، لا أحد يعرف مكانه.

قال الشاب بذعر:

– هذا مستحيل! كيف يغادرنا فجأة؟! أمي قد تموت هلعاً عليه، هو معيلٌ وأخٌ ووالدٌ للجميع.

حالما وصل إلى هذه الملاحظة حتى تكسرت ملامحه وجلس وكأنه يعي للتو حقيقة هروب ألبرت:

– عذراً منك، لم أعد قادرًا على الحديث أكثر.

قال ألكسندر بصوت ما:

– أنا أعلم أنك لست مثله يا آدومان، ولكنني سأكذب على نفسي إن أعدت الغلطة مرتين، خذ راتبك ومستحقاتك، يمكنك أن تغادر في سلام، أنت شابٌ جامعي وعسى أن ينفعك هذا في مكان آخر.

أسرع آدومان وقبل يديه هامسًا:

– سيدي إنني اعتبرك والداً لي، أرجوك لا تطردني من العمل معك، لقد كنت مخلصًا لك من اللحظة الأولى، لم آخذ شيئًا قط ليس ملكي، بحق المولى ألا تأخذني بجريرة أخي.

– هل تريد أن تقنعني أنك لم يكن لديك فكرة عن تصرفات ألبرت، هل كنت عمياً عما يختلس كل يوم؟

أسقط في يد الشاب وتساقطت دموعه التي كانت حبيسة قهره منذ لحظات، ثم جلس على الأرض وقال بصوت بائس:

– بلى، لقد عرفت منذ وقت قصير، لكنني احترت في أمر نفسي، هل علي أن أخبرك على الفور أو أحاول مناصحته حتى يتجاوز عن السرقة ويعتذر، كنت أحدثه كل يوم وقد ضربني على ذلك مراراً.

لم يتكلم المسيو لمدة من الزمن، تاركاً الشاب يدمي دموع الندم على تكتمه، عرف آدومان أنه كان من المفترض به أن يخبر عن أخيه إلى حدٍ ما .

سمع صوت ألكسندر يقول:

– في العمل؛ إن الأمانة هي الأساس، إن تكتمك عليه جعلك تخسر عملك هنا، فيما لو كنت أخبرتني منذ اللحظة التي اكتشفته فيها، لكان علي حينها معرفة أسباب السرقة وربما زدت راتبك، كنت

سأراك في عيني بشكلٍ مختلف، أنا لا أشك لحظة في أمانتك يا آدومان، لكنك أخطأت في صمتك، بظنك أنه سيبقى ينشل الفواكه المتساقطة من فوق أكتاف الشجر وحسب دون أن يكون لما يفعله بُعد أكبر مما تخيلت.

تحول قلب آدومان إلى نار حسرة وغضب، كيف يجرؤ ألـــبرت أن يحكم على عائلته بأن يعيشوا العار من بعده، كيف واتته الجرأة؟

قرر حينها، سوف يواجه أخطاءه ونهض قائلاً:

– سيدي، أنت لم تقصر عنا في شيء، فقد أخذت على عاتقك تربيتي وتكفلت بدراستي الجامعية، سيكون عليَّ أن أثبـــت لـــك أن مجهودك معي لم يكن هباءً منثورًا، أعرف أنني أستحق تماما ما يحصـــل لي، فالصمت عن الحق هو شراكة في الظلم، لا أعلم إن كان الاعتذار سيكون كافيًا ليُكفر عن غلطتي، ولكنني أشكرك على كل شيء فعلته من أجلنا يومًا.

تأمله ألكسندر لبرهةٍ ثم قال:

– حسناً تقبلت اعتذارك، وسيكون عليك أن ترعى والدتك في حال لم يعد أخوك، لكن فيما لو رأيته يومًا فأخبره أنني لا أريد رؤيته أبدًا، فخيانته لي أمر لا يمكن لي أن أغفره.

لم يجب آدومان من شدة العار وبدأ في إنهاء خدماتـــه، ســـلم

ألكسندر كل ما كان يعهده إليه من مال أو ملفات، منحه ألكسندر مظروفًا فيه قدرٌ من المال كنوع من مكافأة إنهاء الخدمة، ولم يجرؤ آدومان أن ينظر في عينه وهو يغادر.

كان يسير في ليلٍ بهيم عائدًا إلى البيت، كلا لا بد أن ألبرتين سوف يعود، إنه أخي الكبير، لا أتخيل الحياة بدونه، جلس على جانب الطريق وصار يتصل به مرارًا وتكرارًا، إلا أن أحدًا لم يجبه من الطرف الآخر.

بقي بعدها يسير والرعب يزداد في صدره، والدته تُعَوِّل الآمال العظيمة على ابنيها والآن وقد غادر بهذه الصورة المفاجئة المشينة، كيف سيخبرها حتى عن ذلك؟

وليس هذا فحسب بل.....؟

توقف حالما وصل إلى الفكرة، أنا وحدي في هذه المعمعة!! سيكون علي أن أهتم بهذه العائلة الكبيرة وحدي كيف سأفعل ذلك؟ إنني غير قادر ألبتة على تحمل المسؤوليات حتى لو أردت، كيف سأكسر قلب أُمي وأخبرها عما اقترفه ألبرتين؟

قرر أن مسافة الطريق هي مسافته الخاصة بالبكاء كشابٍ وحيد، وحالما يصل إلى مدخل حيهم فإنه سيتوقف عن البكاء مدى الحياة، لن يبكي أكثر مما سيفعل الآن، عليه أن لا ينغمس كثيراً في

الحزن على أخيه، فهو إن كان يهتم بهم لما فعل ما فعله، هل ضجر من العناية بهم وفر ليبدأ حياته وحده بعيداً عنهم، إن كان شعر بثقلهم عليه فعلى الأقل كان الأجدر به أن يشاركهم بذلك، كان عليه أن يخبر عما يجول في داخله، أن يصارحهم، رباه ماذا حدث لعقله؟ أين هو ألبرتين الذي أعرفه؟!

وصل إلى البيت، كانت والدته تحضر العشاء، ساعدها بعد أن نزع الجاكيت عنه، ورفع كمي قميصه الأبيض، لاحظت أمه صمته ومرارة تملأ عينيه، فربتت على كتفه وهمست:

– بُني، فيم صمتك هذا؟

–كلا لا شيء، لقد كان يوماً مرهقاً في العمل، وأظن أن أخي سافر في رحلة عمل لا نعلم متى سيعود منها.

بدأ قلبه ينبض من القلق لأنه عاد للكذب من جديد، ولكنه حينما منح والدته نظرة واحدة أخافه قلقها على ألبرتين فأكمل:

– إنه عمل يا أمي لا تقلقي.

– إنها المرة الأولى وهذا مقلق مهما كان، هل سافر إلى مدينة بعيدة؟

– نعم والمسيو ألكنسدر أرسله في بعض شؤونه ولهذا لا تحملي هماً.

رفعت أمه إناء الحساء لتضعه في منتصف الطاولة المربعة وهي تقول:

– عجباً لأمر أخيك.. وكيف يغادرنا مسافرًا دون أن يأتي ليودعني ويحمل معه تمنياني وبركاتي، يا له من ولد قاس.

– أماه لا شيء جديد في تصرفات ألبرتين، لكنه يحبك، أرجوك لا تقلقي بشأنه سأكون مسؤولا عن...

كاد صوته يتكسر حينما تذكر أنه سيحمل كل المسؤوليات التي تميز فيها أخوه في بيتهم هذا وكانوا يحبون عودته للبيت ببعض الحلوى والألعاب لهم.

كان يجلب بعض اللحم والجبن الثمين حينما يمنحونه راتبًا إضافيًّا، حاول آدومان أن يكابد دموعه ويدفعها دفعاً للوراء كي لا تغتاله غصة من الحسرة مكملاً:

– سوف أهتم بكل الأمور هنا لحين عودته فلا تقلقي.

تجمهر الإخوة الصغار حول المائدة وضمه بعضهم في شوق، بدأت والدته تسكب الحساء لكل واحدٍ منهم وهي تعتب على ألبرت تغير شخصيته إلى حدٍ كبير خلال الأشهر المنصرمة، بينما آدومان يقطع الخبز البارونزي الجاف لكل واحد ويساعد في إطعام الصغار دون أن يعلق:

– بني، أنت لم تأخذ حماماً وبدأت من فورك في إطعام الصغار سامحني.

– أماه سآخذ حمامي حينما أنهي كل شيء لليوم، من أجل المدراس غداً سوف أوصل الصغار قبل ذهابي للعمل.

ثم بقي يحدق في حساء الطماطم أمامه..... عمل!

أى عمل؟!

لم يتبقَ شيء، وشعر بالمظروف الذي يصف العار الآن في جيبه وكأنه علامة الخسارة التي مني بها بسبب أفعال أخيه.

كان إخوته يتصايحون حتى باتوا يزعجونه بخصوص عدم وجود ألبرت على المائدة لهذا المساء، ولكنه كان يزجرهم في هدوء كي يتناولوا العشاء وينياموا باكرًا.

وفي المغتسل كان يقف تحت الماء الجاري.. إنه ماء بارد جداً، لم يهمه كثيراً أن يدفئه، فحرارة قلبه الآن تصيبه بالألم الحقيقي، ماذا يمكنه أن يزيل هذا الشعور؟ عدة أحاسيس مختلفة يشعر بأنه يكره أخاه وفي ذات الوقت يفتقده وغاضب منه كل هذا مختلط معاً.. كيف لي أن أقرر ما سأفعله بخصوصه حينما أراه.

لن أتوقف عن البحث عنه حتى يبرر لي أفعاله وخيانته لنا.

تجمد جسده في الماء وبدأ يعطس، سمع صوت البـــاب يطـــرق عليه:

– آدون، هيا يا بني، عليك أن ترتاح.. هل أنت بخير؟ حالك لا يعجبني الليلة هل ثمة ما يزعجك؟

– أنا بخير أماه، سأذهب للفراش.

واجهته حقيقة أخرى لم يكن مستعداً لها، في الغرفة التي كانـــا يشغلانها معاً ، كانت هذه غرفة الشبان الكبار، كان آدومان مسروراً حينما كبر وصارت أمه تخبره أن عليه أن ينتقل مع أخيه الكبير، دخل الغرفة يلف حول خاصرته منشفته السوداء ويقطر الماء مـــن علـــى جسده الناصع البياض، لم يكن آدومان رياضي الجسد مثل ألـــبرت، فذاك رجل يملك بدنًا يحسد عليه، كان يحدق في سريره الخالي، تنبـــه أيضًا لأدراجه المفرغة من محتوياتها، لقد كان يستعد منذ مدة للهروب بسرية، إلا أن أحداً منهم لم يلاحظ ذلك.

من الخير ألا تعلم أمي بذلك، إنني لن أحتمل أن تصاب بشيء قد يقضي هذا على ما تبقى من سلامة عقلي.

وضع رأسه على السرير البارد دون أن يزعج نفسه بارتـــداء ملابسه، وعلى كل الارتجاف الذي كان يشعر به، فإنه لا يقارن لحظة واحدة بالنار المتلظية في داخله، شعر بشيء دافئ يسيل على خديه ولم

يجرؤ حتى أن يلمس وجهه البارد.. فقد وعد نفسه أنه سوف يبكي فقط في طريق العودة إلى البيت وليس في أي وقت آخر، عليه أن ينضج قليلاً.

ولكنه ما لبث إلا قليلاً حتى عاد ليتصل برقم أخيه من جديد مرة تلو الأخرى في مرارة، وحينما أعياه التعب نام.

opeikandl.com

الفصل الثالث

بحث عن لقمة في كومة قش

تواترت الأيام بعد ذلك بطريقة لا تصدق، في روتين كاد يقتل آدومان، فقد صارت لحياته وتيرة واحدة لا تتغير، منذ الأشهر التي اختفى فيها ألبرتين، يقضي نهاره كله خارج البيت يبحث عن عمل، ثم يعود ليعيد إخوته إلى البيت ثم يخرج في فترة العصر ليعمل في مقهى متواضع في حي آخر كي لا يراه أحد مِن مَن يعرفهم في حيهم السكني.

لم يكن يكسب منه الكثير، بينما يصرف من المال الذي حصل عليه من مسيو ألكسندر على احتياجات اليوم من طعام خبز وماء

obeikandl.com

وحليب، بعض الأدوات المدرسية للصغار وأشياء تحتاجها الأم، أصبحت أمه بائسة مع طول غياب ألبرت، فبعد أن كانت تسأل آدومان كل يوم أصبحت تقلل من ذلك، إذ لاحظت أن مجرد الحديث في الأمر يجلب الحزن إلى عينيه.

ولاحظت بفطنتها تغير حالهم المادي إلى وضع حرج، وهنا بدأت هي من جانبها في مساعدة السيدات الراغبات في ترتيب منازلهن خلال أوقات العطل وما إلى ذلك، دون أن يصل ذلك إلى أذنيه؛ فهي تعلم خير العلم أن هذا سيشعره بأن ما يفعله من أجلهم لا يكفي، سمعت ذات يوم من بعض السيدات أن ابنها لم يعد يعمل لدى المسيو ألكسندر فقد طرد من هناك هو وأخوه بسبب مصيبةٍ عظمى اقترفاها.

عاد آدومان للبيت اليوم خاسرًا كما خرج فهو لم يجد عمل في شركة مناسبة لتخصصه الدراسي، أحضر معه كعكًا وبسكويتًا للصغار، وحينما دخل المنزل لم يجد إخوته، ورأى أمه تجلس على الكنبة تعلو وجهها نظرة غاضبة تمامًا.

أوصد الباب دونه وقال في قلق:

– عسى أن يكون خيرًا.. هل من خطب؟ أين الصغار؟

– أرسلتهم لدى جاريتي ليلعبوا مع صغارها، لدي ما أحدثك به آدومان، خذ حمامك وعد إليَّ.

– لنتحدث حالاً، أخبريني ماذا حدث؟.. رباه! لا تبدين بخير.

تنهدت بصوت عال، أشارت للمكان بالقرب منها، ترك الأكياس وتقدم إليها ليجلس، التفتت إليه وقالت بصوت خافت:

– أين ذهب ألبرتين بحق؟

بهت من السؤال المفاجئ، قال بصوت متردد:

– كما أخبرتك مسبقاً...

قاطعته من فورها:

– هل هرب؟ ماذا فعلتما لتطردا من عملكما في المزرعة؟

هبط قلبه إلى الأرض واتسعت عيناه الرماديتان، شعر بخدرٍ في كل بدنه لم تقو عيناه على النظر إلى وجهها وهمس:

– أماه، كيف عرفت بهذا الأمر؟

همست بصوت بلا مشاعر:

– إذن هذه حقيقة، لقد اقترفتما شيئًا جعل الرجل يتخلص منكما هل هذا صحيح؟

رفع عينيه في أمه وكم كانت مجروحة الفؤاد، في عينيها العزيزتين نظرة مقهورة تملؤها الدموع، بدا أنه يشهد ما كان يخشاه وها هو قد حصل، دون أن يكون له يد في ذلك.

قالت والدته الآن بصوت مرير:

– بني، سيكون من حسن التدبير فقط أن تخبرني كل شيء كما حصل، فأنا لست حمقاء كي لا ألاحظ تغيرك المطرد منذ أشهر، وحالتك النفسية الحزينة، مرارتك وحزنك الدائمين، حالتنا المادية التي تغيرت علينا، أنت تقوم بكل شيء يا بني ولا تعترض لحظة واحدة على هذا، حملت على عاتقك الحمل والعناية بنا بكل تفان، لَم تقل لأي من إخوتك بأنك غير قادر على توفير لعبة ما أو قطعة من الملابس التي يحتاجها، لقد كنت كريماً معنا بالرغم من أنك لم تعد تكسب نفس القدر من المال.

كان يحدق بها بوجه مصدوم، إلا إن كلماتها الأخيرة رشقت في قلبه سهامًا وبات الدمع يسيل من تلقاء نفسه، لم يشعر به وهو يترف من عينيه وإن ظل صامتاً، أرعبته فطنة والدته ومدى فهمها إياه وهو الذي كان يظن أنه يخبئ الأمر عنها بما يكفي كي تعيش حياة رغيدة وسعيدة، فلا تشعر باختفاء ابنها البكر عنها، وضع كفه على فمه فقد انتهت كل الطاقة التي لديه ليظل متظاهراً بأن كل شيءٍ على ما يرام وتكسرت ملامحه الوسيمة ثم همس بصوت متهدج:

– أماه!!

ذعرت أمه مما ترى ومدت يدها إلى وجهه ثم مسحت بعض ذلك الحزن هامسة:

– ما الذي كنت تخشى مشاركتي به، بحق الله صارحني؟

ارتجفت شفتاه الرفيعتان وهما يتحدثان بما لم يظن أنه يوماً سيخبرها به، كانت الدموع والنحيب يختلطان بكلماته التي أتت مترددة، بينما وجه والدته يعكس صدمة مما تسمع، حقيقة لم يظن أن الأمر سيئ جداً حتى رأى تبدل وجهها من القلق إلى خيبة الأمل.

لم يخبرها ما قاله له ألكسندر عن ظنه بهما أو كيف بعدها عاش يشعر بالوحدة من افتقاده قدوته وأخاه العزيز، بل اكتفى بالقول إنه منذ ذلك الحين وهو يبحث عن حياة كريمة لهم ويحاول أن يجد العمل المناسب.

هنا التزمت والدته بعضًا من الصمت كي تهضم ما سمعته ثم بعد ذلك نهضت هامسة:

– هل أنت جائع؟

لحق بها قائلاً بصوتٍ مبحوح:

– أماه، أنت لم تقولي شيئًا لي؟ هل أغضبتك بما حصل مني وأخي؟ فأنا لم أعرف كيف أهتم بعملي كما يجب هناك.

كانت تقوم بتحضير بعض الخبز مع اللحم وهي تقول دون أن تلتفت إليه:

– ولدي عاد من العمل للتو وهو جائع، لن أضيع الوقت في التحدث عمن تخلى عنا دون أن يخبرنا وفضحنا بينما نحن في أمس الحاجة إليه، دع عنك الحديث عنه وهيا خذ حمامك، سوف نستكمل هذا الحوار بينما تتناول حساءك.. هيا يا بني.

غادر مصدومًا من ردة فعلها، فعل كما أشارت عليه ثم خرج من الغرفة يجفف شعره وهو يرتدي منامة كحلية وحينما اقترب من المطبخ كي يتناول عشاءه معها، سمع صوت نحيبها الشديد..

توقف على مبعدة في ظلام الصالة الصغيرة، وبقي كما هو هناك يعتصر قلبه عليها، وهو يكره هذه اللحظات فقد خشي عليها من أن ينكسر قلبها بهذه الصورة، حتى نادته:

– آدومان ألم تنهِ حمامك.

تظاهر أنه قدِم للتو وقال:

– آه أماه لقد فعلت، أنا آسف إذا كنت السبب في حزنك بهذه الصورة سامحيني.

كانت تلقي إليه بنظرات دافئة وأشعرته بالهدوء النفسي وإن ظهر جلياً على وجهها ما تكابده من فقدها لابنها البكر.

جلس معها وقبَّل يدها:

– شكراً لك إذ تقدمين لي كل هذا الاهتمام.. أمي أشـــكرك، علَ الله يأخذ بيدي فأهتم بكم كما يجب.

قالت له بشكل نهائي لتحسم أمر ألبرتين تماماً:

– أصغ إلي يا بني فهذا حديثٌ لن أعيده بعد اليوم.

رفع عينيه إليها وكان يقرب الملعقة من فمه والبخار من الحساء يتطاير فخفضها وهو يقول:

– قولي.

كانت المنضدة مضاءة فقط بضوء واحد معلق فوقها ينخفض من السقف، وبالكاد تظهر الموجودات خارج إطار تلك الدائرة المضيئة، سمع أمه تقول بحزم:

لقد اهتم بنا ألبرت وقدم ما يمكنه منذ كان صغيراً، ما حـــدث منه بعد ذلك ليس ذنبك أو خطأك، لذا لا تحاسب نفسك على شيء لم تفعله، سنخبر الصغار أنه يعمل في مكان آخر ولن نتحدث عنه إلا بكل خير فهم لا يستحقون أن يعرفوا عنه شيئًا غير ســـار، لا أريـــد لقلوبهم أن تنكسر.

هز رأسه مؤيداً وأُعجب بحكمتها، استطردت:

– بعد ذلك سوف نتقاسم الاهتمام في البيت كل واحـــد منـــا سيقوم بالعمل بالقدر الذي يستطيعه، عليك أن تبقيني مطلعة علـــى

وضعك المادي كي أرتب حياتنا معاً، آدومان أنت ابني ولست زوجاً لي، إن ما يجب عليك فعله هو شيء أشكرك عليه ولكنه ليس مئة بالمئة من واجبك، فهذا ظلمٌ بحقك، فأنت لا تزال صغيراً، ربما ألبرتين فر منا لأنني ألقيت على كاهله بالكثير منذ صغره لا أعلم، ولكنني لن أحكم في أمره حتى أراه.

– خيراً ما تفعلين أماه، لقد تعب كثيرًا من أجلنا، أقل القليل أن ننتظر عودته لكي يبرر بنفسه أفعاله.

منحته نظرة دافئة ثم ربتت عليه وهمست:

– وأنت أيضاً تهتم بنا بصمت مطبق، من الغد اذهب وابحث جيداً عن عمل تحبه وليس عملاً تضطر إليه من أجلنا، حقق بعض أحلامك، أنت حتى لم تخبرني قط عن أحلامك.

قال بسرور وهو يأكل بشهية جيدة الآن:

– لطالما حلمت أن أكون سكرتيرًا لرجلٍ مهم، أن أعمل في مكان عريق وأكون جزءًا من مؤسسة كبيرة، فآخذكم وأنتقل بكم إلى حي فاخر لنعيش حياة رغيدة، حتى إنني أحلم أن أحضر لك خادمة تقوم بكل شيء من أجلك فتعيشين في رخاء ما بقي لك من العمر، كم أرجو أن يحقق لي ربي هذا الأمر.

غرقت عيناها بدموع الامتنان وهمست:

– عساها أحلام محققة.. أنت تستحق، ابحث بجد وأنا سأرتب تفاصيل مصروفات الصغار بينما سيكون عليك أن تهتم بالإيجار والفواتير، لا تقلق سوف أعلم الصغار كيف يحافظون على الماء والكهرباء بالقدر المعقول لهم.

أخذ يدها البيضاء التي خط الزمن عليها لوحته العتيدة وقبل تلك اليد:

– أماه، أعدك أن أقوم بهذا وأن أكون صريحاً معك فلا أخبرك إلا بما يحصل حقا وصدقاً، لقد كلفني الكذب عليك وعلى الآخرين الكثير، سامحيني.

سكبت له الكثير من الحساء وصار يأكل وهو يتأمل الأيام القادمة في بهاء، ربما تكون الحياة ابتسمت له.. هل هذا الوجه العجوز يستحق كل ألم وعذاب رباه.. يا ربي، أماه كم أحبك.

بعدها بأيام أخبره صديق له أن مؤسسة البرق يبحثون عن سكرتارية متميزين، وأعطاه العنوان كي يذهب ليقدم أوراقه هناك، بعد أن يئس تماماً من أن يجد شيئًا يعمله خلال الستة الأشهر التالية لحديثه مع أمه وقد مضى بهذا عام كامل منذ اختفاء ألبرتين.

وكان ينام في الليل يفكر أنه أخيراً وجد المكان الذي يرجو العمل فيه ولكنه يأمل أن يجدوه مفيدًا لهم فيوظفونه.

obeikandl.com

الفصل الرابع

هل يحتاجني البرق

كان يدخل مبنى المؤسسة في بنطال أسود وقميص كحلي يحمل ملف توظيفه، إن هذا أفضل ما لديه من زي رسمي قد قامت والدته بكيهِ له من الليل، كان قلقاً من ألا يوافق عليه الشخص المسؤول عنه، سمع يومها بأنه رجل صعب المراس وقد انضم للمؤسسة منذ خمس سنوات ولكنه غيَّر فيها الكثير وأضاف لها قوانين صارمة نقلتها إلى مصاف مؤسسات التحقيقات الفضلى الخاصة في بارونزا.

أشير إليه عن مكان المكتب وهناك وقف في ردهة خارجية يجلس فيها قرابة العشرين شخصاً كلهم يحلمون ملفاتهم، تعلو أعينهم

obeikandl.com

نظرات الأمل والرجاء، بينما يتصفحون وجوه بعضهم البعض، ليروا أيًّا منهم يحمل سمات القوة والبأس والنجاح فيفوز بهذه الوظيفة الواعدة، يبدو أن دخوله صدم الجميع فطوله فارع جداً وجسده معتدلٌ يحمل في وجهه ابتسامة جذابة، يبدو شاباً مهذباً ولكن وجهه فيه سمات الناضجين مما يخيف الآخرين منه بشكلٍ تلقائي.

كان يحدق حوله في قلق وقرأ على باب المكتب:

– الفارس خوليوس الآنكا الأول.

الآنكا؟ يا له من لقب غريب! سمع أنه رجلٌ من الأمازون، ربما من الأرض الحمراء في أقاصي الجنوب، كان يعيش في حقبة قديمة، لكنه الآن انتقل منها إلى هنا ليرفع العمل في هذه المؤسسة إلى هذا المستوى الرفيع الخال من الأخطاء والذي باتوا يتفاخرون به، وليس هذا فحسب بل إن أحدهم أخبره أن السيد خوليوس هذا قليل التحمل للمتخرجين الجدد، وبالكاد يطيق حماقاتهم، ولهذا فهو يبحث عن السكرتير المناسب منذ أشهر ولم يجده حتى اليوم، مما يمنح عديدين فرصة ليقفوا أمام هذا الأسطورة رقم واحد في عالم التحقيقات الخاصة، لم يكن آدومان قد علم قط ما هي التحقيقات الخاصة هذه ولكنه لم يزعج نفسه بالتطفل، فإن لم يحصل على هذه الوظيفة فإنه لن يتدخل في تفاصيل لا تحق له، هكذا علمه ألكسندر وهو لن ينسى درساً واحداً علمه إياه.

جلس في مكانه منتظراً أن يحين موعده للدخول، كان هنالك كل أنواع الشبان والشابات وكل واحد يظهر عليه مستوى محدد من الاحتراف، شعر أنه أقل من المستوى لكنه فكر هي فرصة فإن نجحت فسيتمسك بها بكل قوته.

نودي بعد ساعتين على اسمه، كان قد أرهقه الانتظار ولكنه لم يبال إلى أي درجة يطول به الأمر، إن البحث عن الأفضل يحتاج لصبر ومن لم يفهم هذا المبدأ البسيط فلن يصل إلى أي شيء في حياته.

نهض وحمل معه ملفه ثم طرق الباب المهيب ليسمع صوتاً جاداً وحاداً يصيح:

– لقد قلت مراراً، ادخل!

حقاً إنه لم يسمعه؟ فتح الباب ودخل المكتب، فوجد رجلاً فوق الخمسين، يبدو وجهه البرونزي بوضوح من الأرض الحمراء، شعره فاتح اللون كستنائي، تتزلق عوينات ذهبية مستطيلة عن برج أنفه البديع، وفي قميص أسود وبنطال رسمي بني كان يجلس على كرسيه بينما يدخن بشراهة ويتصفح ملفات متنوعة للعديد من الموظفين المحتملين السابقين، الذين خرج آخرهم قبل لحظات.

انتابته مشاعر غامرة فقط لرؤية تلك الطلعة البهية، وتمثل فيه كل شيء رجاه أو كان يرجوه، المكان يغمره دفء ما ورائحة زكية؛

خليط من القهوة والتبغ، بينما بريق العراقة والأصالة يتفتق بجلاء من مسام ذلك الوجه الرصين.

قال آدومان بصوت هادئ:

– هل تسمح لي بالدخول سيدي؟

رفع خوليوس عينيه الناعستين بطبيعتهما، وكانتا غامضتين ذهبيتي اللون كمثل لونه الغريب، يعلو ذلك كله تقطيبة حاجبيه التي يبدو أنها جزء لا يتجزأ من كينونته العتيقة، لفت نظره شيء ما في الشاب المهذب أمامه ثم قال:

– تفضل، هل أنت سكرتيرٌ متخرج أم أنك عملت قبل اليوم في هذا المجال؟

– نعم، عملت من قبل في مزرعة وخدمت فيها لمدة عامين، هذا هو ملفي.

أشار خوليوس إلى كومة من الملفات التي تقبع بالقرب منه وقال:

– ضعه هنا، ما اسمك إذن؟

لاحظ آدومان العوينات الجميلة المستطيلة التي رفع بها خصلاته الكستنائية ليبعدها عن وجهه والتي يبدو أنها أطول مما تبدو عليه، ظل آدومان واقفاً عنده بعد أن وضع الملف وقال بتهذيب:

– اسمي آدومان أنطوان، أبلغ من العمر ٢٥ عامًا.

كان خوليوس يتفحصه بدون حرج وبدا عليه أنه انزعج من طوله المبالغ فيه، وقال:

– هممم، وهل أنت على معرفة سابقة بنوع العمل الذي أحتاجه؟

لم يتردد آدومان بأن قال:

– كلا سيدي، ولكنني أزمع إلى التعلم، وأنا سريعٌ في ذلك، سوف أكون جاهزاً لتعلم مهامي في وقت قصير جداً.

– لم تريد العمل في هذه الوظيفة الخطرة، في هذه المؤسسة، تتعرض سلامة الكثيرين للخطر بسبب ما نفعله كل يوم، هل أنت مستعد للموت مثلا في سبيل حماية آخرين لا تمت لهم بصلة قرابة؟

– نعم سيدي، إنني هنا من أجل العمل بجد، مهما كانت متطلبات هذا العمل فسوف أحاول جهدي وأقدم أفضل ما لدي، أرجو أن أحسن فعل ذلك.

أشار له خوليوس:

– اجلس قليلا ريثما أنهي تفحص بعض الأوراق هنا.

قال آدومان وهو يحدق في المكان من حوله:

– ربما لو ساعدتك سيدي في ترتيب هذه الملفات في أماكنـــها حتى تنهي عملك.. لا مشكلة لدي.

حدق به خوليوس ملياً والدخان يتطاير من لفافته بين شفتيه ثم قال:

– هممممم، حسنا افعل في هدوء.

هز آدومان رأسه ثم تحرك بسلاسة في المكان وهو يبقي عينيـــه لنفسه، كل ما شعر به خلال تواجده في المكتب الدافئ والمائـــل إلى الحرارة، منخفض الإضاءة وشبه المظلم، كان شعوراً مختلفاً غريبـــاً، كأنه وجد والداً له سلطته الأبوية التي لا يظن آدومان أن الفـــارس يشعر بها، كانت سلطة غامرة، رجا الله في داخله أن يقبل بـــه وأن لم يشعر أنه اهتم لوجوده بتاتاً فقال بعد أنهى ترتيب المكان:

– سيدي إن لم يكن هنالك ما يفيد بوجودي فيمكنني الخروج حتى يتسنى للمتقدم التالي أن يدخل فلا يضيع وقتك.

رفع خوليوس عينيه عن الورق وقال بصوت خافت:

– سؤال أخير قبل أن تغادر.

قال آدومان بجديته:

– نعم تفضل.

أشار خوليوس للخارج وهو يسترخي للوراء:

– هل تظن أن في الخارج تقدم آخرون بأوراقٍ وسيرة ذاتية أفضل منك؟

أخذه السؤال على حين غرة ولكن قال بثقة:

– لا أعلم، فلم أنظر إلى الآخرين حينما دلفت إلى هنا، لكنني قد أكون أكثرهم قدرة على تحمل الأشخاص والمواقف التي تحصل من حولي، دون أن يتأثر مستوى عملي بذلك، هذا شيءٌ أعرفه عني جيداً.

كان جوابه شيئاً جعل خوليوس يلتزم الصمت لبرهة:

– حسناً هذا كل شيء للآن قد أتصل بك لاحقا.

ألقى آدومان نظرة أخيرة عليه.. حسناً من الواضح أنه لا يوجد لي حظٌ هنا، فشكره وغادر بهدوء، كان حزيناً لسبب واحدٍ فقط، ذلك رجلٌ محترم وكم ود أن يخدمه ويساعده، تنهد وهو يسير خارج المكان.

أزعجه أنه لم يسأله الكثير من الأسئلة، لم يبال به منذ دخل، لم يهتم حقيقة لتفحص ورقه وحتى لم يسأله ما نوع العمل السابق، لم يبد على وجه الفارس المميز شيء قط، يبدو أنني غير مفيد لمثل هذه المؤسسات، إن المميزين فيها يسمَون فرساناً لأنهم جسورون ومقدامون في عملهم ولهم تاريخ طويل في تحمل الصعاب المروعة.

عاد إلى البيت، واتصل بصديقه شكره كونه لم ينس أن يذكّره بالذهاب لتقديم ورقه هناك، ومع مرور الأسبوع نسي الأمر تماماً، كان متأكداً بأنهم لن ينظروا مرتان إلى ملفه المتواضع والذي لا تتعدى الخبرة فيه سنتان في مكان واحد.

مرت بعد ذلك أسابيع قليلة كان يبحث فيها هنا وهناك عن وظائف أخرى منها أن يعمل في متجر لتنسيق الزهور أو في مقهى.

وفي أحد تلك الأيام وبينما يسير وملفه في يده، أصابه الإنهاك من طول الوقت الذي مشى فيه بحثاً عن فرصة جيدة، وجد منتزهًا قريبًا فدخله وصار يجلس منخفض الكتفين يراقب بعض الأطفال وهم يلعبون في الألعاب الخشبية المتناثرة هناك، والشمس تودع هذا اليوم بغيابها الصامت في الأفق.

– هل أنت آدومان؟

رفع الشاب رأسه، وقعت عيناه مباشرة في عيني الفارس الوسيم، هل هذا هو السيد خوليوس من مؤسسة البرق؟

كان يقف هناك وهو يحمل حقيبة العمل وفي يده كوبٌ ما.

نهض آدومان على الفور بقلق مأخوذاً بوجود هذا الأسطورة هنا أمام عينيه، كان طوله مصدر إزعاج لخوليوس الذي قطب حالما لاحظ ذلك.

كان طول خوليوس نصف طول آدومان الذي كان على أقل تقدير قرابة الـ ١٩٠ سم.

قال خوليوس:

– لم أظن أنه أنت حتى اقتربت منك، كيف حالك؟

ثم لاحظ الملف في يده فخجل آدومان من ذلك، وأجاب:

– أنا بخير سيدي، أتمنى أن تكون قد حصلت على سكرتيرك المنشود.

مد خوليوس يده وسحب ملف آدومان ثم أشار به على صدره وقال بجدية:

– ذلك هو أنت! المشكلة هي أنك أخذت معك ملفك حينما غادرت مؤسستنا في ذلك اليوم، ومنذ ذلك الحين وأنا أبحث عنك.

اتسعت عينا آدومان وبقي يحدق به في دهشة صامتة قلبه يضطرب غير مصدق، أشار خوليوس بالملف وهو يغادر المكان في تحية:

– لا تقدم أوراقك إلى جهات أخرى، نحن نحتاجك في مؤسستنا، أنتظر حضورك غداً.

مرت لحظة من الصمت والدهشة، ألقى عليه خوليوس نظرة ساخرة ثم لوح بكوبه:

– أراك غداً، إنني أتوقع من سكرتيري أن يصل قبلي إلى المكتب، لذا إياك والتأخر فأنا أتصف بمزاج عكر في الصباح الباكر.

ثم غادر في هدوء وقد ملأت رائحته الزكية المكان.

غرقت عينا آدومان بدموع الامتنان الشديد، شعر أنه أسعد الناس اليوم، لم يعد هنالك الكثير من الوقت قبل أن يحل موعد الإيجار لمترلهم المتواضع، وأمه باتت عاجزة عن توفير مال لدفعه إلى المؤجر، انهار جالساً في مكانه وبدأت شفتاه ترجفان من شدة الفرح، كيف حصل ووافقوا عليه، لماذا؟

كانت شمس الأصيل تغيب في سلام وهو يشعر بسرورٍ لا مثيل له، عرف أنه سيحاول أن يقدم أفضل ما لديه كي يجعل السيد خوليوس مرتاحاً في عمله.

عاد إلى المترل وهو مرتاح الخاطر والبال، لاحظت والدته سعادته فقالت وهما يرتبان المائدة معاً:

– بني ما الذي يحدث معك، تبدو مفعماً بالسرور عسى أن تكون أخبارك جيدة يا صغيري.

كان يفرحه حينما تخبره أمه أنه صغيرها بالرغم من أنه الابن الأكبر في الوقت الحالي.

كان الصغار يتصايحون طلباً للعشاء الذي كان مكونًا من قطع

الخبز المدهونة بالزبدة مع حساء خفيف من الخضار والطماطم.

أجابها وهو يضع الطبق على المائدة:

– أماه، لقد استجاب المولى دعاءك والآن أنا موظف رسمي في مؤسسة البرق العريقة.

حدقت به وظهرت عليها سعادة عظيمة، حتى إن دموعها سالت، تقدم إليها وضمها إلى حضنه، تبسمت هامسة:

– إن الله كريم معك يا بني لا تخذله، أنت قادر على أن تفعل شيئًا هامًا هناك فكن على قدر المسؤولية والثقة.

تعلم آدومان شيئًا هاماً جداً، أنه لن يخفي شيئًا يعرفه قد يضر بالمؤسسة، فالدرس الذي تعلمه لن ينساه أبدًا فقد خسر عملاً كان يحبه وعائلة كان يتطلع لأن يكون جزءًا منها منذ كان صغيراً جداً، الآن وجد ما هو أغلى وأثمن إن السيد خوليوس رجلٌ يمثل كل ما يتمناه في الأب الذي لم يحصل عليه قط ولهذا فهو أقسم أن يكون على قدر المسؤولية كي يكون السيد خوليوس راضيًا عن كل ما يقدمه ويتعلم منه قدر المستطاع.

كوى بزته الوحيدة الأنيقة التي كانت بلون كحلي مع قميص أسود مع ربطة عنق كحلية، رتب أدواته وأقلامه ثم خلد لنوم في حماسٍ للغد.

حضر في اليوم التالي ببزته المتواضعة وحينما دخل المكتب وجد المكان كما تركه آخر مرة إلا أنه بطريقة ما امتلأ بالأوراق والصناديق هنا وهناك حتى إن السيد خوليوس المختفي خلفها كان بالكاد بادياً من مكانه ذاك، علت وجهه ابتسامة وقال بسعادة لم يتمكن من إخفائها:

– صباح الخير سيد خوليوس؟

رفع خوليوس عينيه الكستنائيتين الناعستين، عن جهاز القهوة وقال بعصبية:

– هل تعرف كيف تشغل هذا الشيء؟ تباً، طلبت منهم أن يحضروا القهوة فقيل لي إن لدي جهاز قهوة هنا حتى إنني لم أعلم بوجوده قبلاً.

وضع آدومان حقيبته حيثما اتفق وقال وهو يقترب منه:

– نعم سيدي لقد استعملت هذا الجهاز قبلاً، دعني أساعدك.

أشعل خوليوس لفافة واستند ليراقب الشاب قائلاً بسخرية:

– في الواقع سيكون هذا من مهامك من اليوم فصاعداً.

أجاب آدومان:

– إن هذا يسرني في الواقع.

بدا أن خوليوس لم يتوقع الرد اللطيف فعقد حاجبيه أكثر، مكتفياً بالمراقبة.

شمر آدومان على الفور وبدأ بتحضير القهوة، ما هي إلا لحظات حتى فاحت رائحتها الزكية في المكتب، توجه إلى النافذة وفتحها وهو يقول:

– مع رائحة الصباح وتصبح القهوة أفضل.

تنبه خوليوس للتغيير الإيجابي في المكان ثم تأمل مظهر الشاب المنتعش وفكر أنه أحسن الاختيار، أشار إلى ملف آدومان الذي كان في يده بالقلم قائلاً:

– هذا الملف المتميز جداً لم تسنح لي الفرصة بقراءته في المرة الأولى، ومن الواضح أنك شاب جاد فسيرتك مشرفة، أبوك قام بعملٍ جيد في تربيتك.

في كوب نظيف وجده هناك كانت داخله الأقلام أخرجها وغسله ثم صب له القهوة فيه مجيباً:

– رحمة الله عليه سيدي لقد توفي قبل أن أتذكره كما يجب، لقد كانت والدتي هي أمي وأبي في الوقت ذاته.. شكراً، إن هذا يعني لي الكثير.

أخذ خوليوس القهوة وقال:

– لا عليك.

ثم ارتشف من الكوب رشفة وآدومان يقف عنده منتظراً رأيه في القهوة، رفع خوليوس عينيه إليه وقال مشيرًا بالكوب:

– أحسنت صنعاً هنا! من أين أحضرت هذا الكوب!

كان آدومان يدير وجهه للجانب الآخر ليخفي فرحته وهو يرتب الأقلام في مكانها المخصص على المكتب مجيبًا:

– كان هنا منذ البداية، يسرني أنها أعجبتك.

قطب خوليوس، لاحظ آدومان أن بعض الأقلام مغروسة في شعره هنا وهناك وحتى إن مشبك ورق معدنيًّا ما يتدلى من خصلة في الخلف قال خوليوس:

– حقاً، كان يوجد كوب هنا! حسناً من الواضح أنك سوف ترتب هذا المكان المروع، لست متفرغًا لهذه التفاهات.

أدومان بفرح:

– بكل سرور.

* * *

بدأ العمل الآن وصار آدومان يتعلم بكل حماس كل ما يمكنه من الفارس المتحفظ جداً خوليوس، وأصبح معروفًا لدى الجميع أن لا أحد قادر على احتمال عاصفة خوليوس العصبية خلال اليوم مثل سكرتريه آدومان البارونزي وهو يفهم شخصيته خير الفهم بطريقة لا يعيها كثيرون.

عُرف عن آدومان أنه جدي وساخر مثل الفارس الذي يعمل في خدمته، لم يكن أحد قادرًا على فهم التلميحات والأصوات غير الواضحة التي تصدر من خوليوس أحياناً، مجيباً عن سؤال أو طالباً شيء ما، ظناً منه أنه يتحدث بصوت مفهوم واضح، فقد كان خوليوس أحيانًا يلقي بالأوامر كما لو كان يلقي بالشتائم، بينما آدومان يتلقاها في كل هدوء وتفهم كامل لهذا الطاغية الغاضب أبدًا.

أصبح آدومان الآن نوعًا ما يسمى بالظل بين رفاقه، وقد عنوا بهذا ظلاً لخوليوس فهو لا يتكلم حتى يؤذن له، ولا يتصرف حتى يسمح له، بيد أنه كان ذا شخصية نافذة، فليس في حاجة لأن يكون تابعًا لأحد، تعرف على الكثير من الأشخاص المهمين والرائعين في المؤسسة، تميز في وقتٍ قصير لدرجة أنه كان الأبرع في مَن حوله.

obeikandl.com

الفصل الخامس

عملنا.. غريب جداً!!

عاد آدومان إلى الواقع حيث كانا في القطار المتجه إلى فيتاليا بينما كان خوليوس غافيا وهو عاقد الذراعين، والصحيفة بين يديه ملفوفة، هو لم يجرؤ قط على أن يعرف من السيد خوليوس تفسيراً لاختياره إياه من بين آخرين، ولكنه الآن سعيد وحسب.

وصلا إلى المكان المقصود، نزلا من القطار، آدومان يحمل الأمتعة وخوليوس يتصل بالمندوب:

– هل سننتظرك كثيراً فير؟ ربما تظن أن لدي وقت العالم بأكلمه، أين أنت؟

obeikandl.com

– سنيور هولويس، لا تغضب بهذا الشكل، ذا سيؤثر على وسامتك.

– لا تثر جنوني، أين أنت؟

– على مقربة من المحطة، لحظات وأصل.

أقفل خوليوس الهاتف وقال بضجر:

– هذا ما كنت أخشاه، نحن موعودان بفير فهو الشخص الذي سيوصلنا إلى عملائنا وكم كنت أرجو ألا أرى وجهه اليوم، يا له من يوم.

تبسم آدومان منتظراً ظهور هذا التقني ليأخذهما إلى وجهتهما.

بحث خوليوس في جيوبه:

– أين قلمي؟

أخرج آدومان القلم من جيبه وقال:

– ها هو ذا سيدي.

لم يفكر خوليوس حينما أخذه منه ليبدأ في تفحص الجدول والمفترض لهذا اليوم:

– حسناً، سوف نمر على الفور على شركة عمليتنا، ومن بعد أن نلقي نظرة على كل شيء فسوف نعود إلى الفندق هل تأكدت من الحجوزات هناك؟

– نعم فعلت.

سمعا صوت سيارة عالية وتأفف خوليوس لمجرد سماعها. ضحك آدومان على مبعدة منه فهو يستشيط غضباً حينما يراه يفعل وقال:

– هل من خطب؟

– فير الأحمق يحب إصدار الكثير من الإزعاج فقط ليخبر العالم بأنه هنا.

– كم يبلغ من العمر سيدي؟

– من يعلم، وهل لهذا أهمية، حسبي بأنه رجلٌ يقوم بعمله كما يجب، إن بعض التفاصيل في الناس غير هامة إن لم تؤثر سلباً على عملك معهم، لا تنس هذا أيها الصبي.

– وكل لحظة معك سيدي، هي علمٌ بطريقة ما.

فتُح باب سيارة فارهة حمراء تلفت الأنظار، وصاح أحدهم منها بصوت عال:

– بونجورنوووو يا جماعة، كيف حالك سينور؟

رأى آدومان رجلاً في الأربعين من عمره بشعرٍ كستنائي محمر متناثر بغزارة حول وجهه، كان في حلة جميلة من بنطال أبيض وقميص سماوي، يشتمل بمعطفٍ أبيض ناصع، لوح بعويناته الشمسية ذات

الانعكاس الأصفر وافتر فمه عن ابتسامة ساخرة ثم قال:

– أهلاً بكما، أرى أنك أحضرت معك متدربًا جديدًا، دوماً أرحب برؤية الشبان الجدد المتحمسين للعمل في مجالنا الصعب هذا.

تقدم إليهما مصافحاً، شعر آدومان بالتسلية فقط لرؤية الصدام بين رجلين بارعين في عملهما، لذا بقي كما هو يلتزم الصمت ويشاهد بكل استمتاع:

– مرحباً بك سنيور.

أشار فير إلى آدومان بعويناته وهو يقودهما إلى سيارته:

– من هذا الشاب سنيور هوليوس؟

– في الحقيقة ظننتك لن تجد المساعد المناسب لك أبداً.

ركب خوليوس في الأمام وآدومان وضع الحقائب في الخلف ثم جلس في الجهة الخلفية بينما يسمعهما يتحدثان:

– لا شأن لك به، أخبرني الآن عما تمخضت تحقيقاتك في أمر الآنسة صوفيا، لقد تبادلت معها الرسائل بشأن التفاصيل لكنها قالت عليك أن تأتي لترى بنفسك.

حرك فير السيارة وقال بكل جدية وقد اختفت كل التعابير الساخرة من وجهه الفيتالي:

– هه، يا رجل إنها فتاة نواحة، بالكاد توصلت إلى معلومات هامة حينما كنت في رحلة تفقدية عندها، أخبرتني عن رسائل مخيفة تصلها كل عدة أيام، يتم تهديدها فيها بانتزاع الشركة منها، كما أنها وجدت عدة أوراق مفقودة في الخزنة الخاصة بوالدها.

أشعل خوليوس لفافة ما وقال:

– ماذا؟ ألم تعرفوا من يرسل إليها الرسائل ومن يعلم بحقيقة إرثها لهذه الشركة الهائلة سوى أفراد عائلتها وأقاربها؟

فير وهو يلتهم شطيرة كانت في السيارة الفارهة:

– يا رجل، ألم تعلم أنها لن تستطيع الحصول على قرشٍ واحدٍ من أموالها هذه حتى بلوغها السن الرسمية للوصية وهو الخامسة والعشرين بينما هي الآن في العشرين فقط من عمرها، إن عليها وصاية من أحدهم لمدة خمس سنوات قادمة.

فكر خوليوس قليلاً وقال:

– آدومان اذهب حالاً إلى العناوين الموجودة لديك وتحدث مع أقاربها بصفتك صديق، كي تعرف شيئًا عن حقيقتها من وجهة نظرهم.

قال فير بصوت ما:

– أين هي أول وجهة؟ كي نوصله.

التفت خوليوس إلى آدومان وقال:

– هل ستنتظر كثيراً؟ هيا غادر.

أوقف فير السيارة وقد علت وجهه ابتسامة تسلية وهنا فتح آدومان الباب وقال:

– سأكون معكم في الموقع بعد ٣ ساعات.

خوليوس بدون تردد:

– هذا كثير، أمنحك ساعة ونصف فحسب، غادر.

هز آدومان رأسه في موافقة ثم ترك المكان.

حرك فير السيارة وقال وهو يضحك:

– يا رجل؟ إنك حتما تستعبده، كيف يطيقك؟

– هو شاب لامع، ولسوف يصبح شيئًا عظيماً إذا ما تابع العمل معي أو مع غيري على هذه الوتيرة السريعة، هيا بنا لا تضيعَن الوقت، أنصح ألا تبدأ في الغناء طوال الطريق لتزجي وقتك لأني سوف أخنقك.

ضحك فير مرة أخرى وانطلقا إلى وجهتهما.

* * *

في مكان آخر كان آدومان قد أنهى كل لقاءاته في الوقت المحدد له، كان يركض هنا وهناك مستعملاً بهذا سيارات أجرة والجـري في الأنحاء كي ينهى اللقاءات في وقته المحدود، حتى وصـل إلى قصـر العميلة الذي يفترض أن السيد خوليوس والسنيور فير قد سبقاه إليه منذ ساعات.

توصل إلى معلومات هامة بشأن العميلة وكان جاهزاً لأن يدلي بها إلى السيد خوليوس.

دخل إلى المكان وكان منيفاً وفاخراً، الأشجار الوارفة في تلـك الحديقة والكثير من النوافير.. إن فيتاليا بطريقة ما تعـج بـالنوافير والجمال الساحر، سحرها يختلف عن سحر بارونزا.

أوصله أحد الموظفين إلى حيث يجتمع المحققون ومن رائحة المكان عرف أن السيد خوليوس الآن في المكتب القريب هنا.

سمع أصواتهم يتحدثون، فدخل هناك في مكتب يبدو أنه كـان خاصاً برجلٍ كبير في السن ذي ذوق فاخر يقف في المكان فير وفي يده كوب القهوة وإلى جانبه السيد خوليوس يحمل الأوراق يعاينـها، ثم الآنسة صوفيا لقد رأى وجهها في الصور لكنها تبدو أكثر براءة على أرض الواقع وصدمه كثيراً أنه سمع ما سمعه من أقاربها بـالرغم مـن مظهرها هذا.

تنبه خوليوس إليه فقال وهو يعاين ساعته:

– هل توصلت إلى شيء حيث أرسلتك آنفاً.

– نعم سيدي، هل يمكننا أن نتحدث على حدة.

أشار له خوليوس بالخروج وهمس لفير بشيء ما حينما مر بالقرب منه.

في خارج المكتب همس آدومان بصوته الجاد على الدوام:

– سيدي إنها آنسة ليست كما تبدو.

– لم أنت متاكد؟

– لقد أخبرتني ابنة خالتها أنها كانت تتصرف بنفس الأسلوب في الماضي حينما نزع منها والدها منحتها المالية التي أعطاها إياها، لما أخبرته عن رغبتها بالبدء بعملها الخاص، والمصيبة أنها بددت المال على نفسها وعلى صديقاتها مرحاً ولهواً، حينما لم يتبق لديها شيء قط قالت إن صديقتها سرقت أموالها، لكن والدها في الحقيقة يعرفها جيداً، فحدد لها مصروفاً ثابتًا لا يزيد ولا ينقص مهما طالبت بغيره، حتى توفي.

– هممم، لقد أرتنا عدة رسائل من هنا وهناك تزعم فيها أن والدها كان لديه الكثير من الأعداء في العائلة وهم يمكرون شراً في الخفاء، كونهم يريدون أن يحصلوا على الإرث لهم دوناً عنها.

– أشك في هذا سيدي، إنها تلعب نفس لعبتها القديمة.

فكر خوليوس ملياً وتراجع للوراء يحدق في شيء في الممر ثم قال بصوته الهادئ المنخفض:

– اذهب وتبادل الحديث الظريف مع الخادمات هنا، وسوف أحضر لها جلسة لن يمكنها أن تكذب فيها أبداً حتى لو حاولت.

لم يفهم آدومان عن أية جلسة يتحدث خوليوس ولكنه غادر ليقوم بعمله على أية حال، فالحديث الظريف مع الخادمات يعني التحقق منهن عن الإشاعات والحقائق المخفية هنا.

كانت الخادمات تخبره بالكثير فإحداهن صارحته أن الآنسة صوفيا تقيم الحفلات الراقصة كل ليلة منذ توفي والدها وهي حفلات خاصة برفاقها وحسب، إذ إنهن لن يشين بها، ويكشفن حقيقة أنها تبدد ما تبقى لديها على مرحها وحسب.

واحدة أخرى قالت له: إن الآنسة صوفيا تريد أن تحرم اثنين من بني عمومتها من حصتهما المنصوصة في الوصية التي اشترط والدها فيها أن يكون هذان الشخصان معها في إدارة الشركة حتى بلوغها السن الرسمية، بعد إثبات نفسها كي تستحق أن تقوم بإدارتها معهما، هي لا تريد أن يلمس أحد قرشاً من أموال والدها أو يشاركها على أقل تقدير.

عاد إلى المكتب الذي كانوا يتحدثون فيه ليجد الآنسة صوفيا على كرسي الاسترخاء ذي اللون الأرجواني في المكتب، كانت تستلقي هناك ويداها على بطنها تستمع إلى إرشادات فير الذي كان جاداً.

لم يتوقع قط أن يراه بوجه جاد حيث يبدو في حالة من الاسترخاء معظم الوقت والتصرف كأن كل شيء لا يعنيه.

همس آدومان بقلق فهو لم يفهم ما يجري أمامه:

– ماذا هناك سيدي؟

– إن فير هو التقني الخاص بتحويل طاقة هذه الفتاة إلى ممرات يمكنني العبور من داخلها، إنها تقسم الأيمان المغلظة إنها لصادقة في كل ما أسلفت من اتهامها لبني عمومتها وأيضاً بعض من أقاربها بأنهم يخططون من خلف الجدران للإطاحة بها.

بدأ جسد آدومان يرتعد وهمس:

– ماذا ستفعلون إذن سيدي، هل هذا شيء مصرح به؟

رفع خوليوس عينيه إليه وضربه بالملف على رأسه ثم قال:

– هل بدأ حمقك من جديد؟ قد لا يكون لديك فكرة عن طريقة شغلي الحقيقية، لكنك سترى الآن فقد بقيت في معيتي بما يكفي لتتعرف على هذا الجانب من عملنا الخاص، وعليك أن تتعلم شيئًا مفيداً، اليوم سوف نكتشف كل شيء كما حصل ويحصل.

لم يتوقف آدومان عن الارتجاف فهو لم ير شيئًا كهذا قط:

– كيف ستكتشفان كل شيء؟ بأي طريقة؟

فير يجهز آله غريبة موصولة بعض أطرافها السلكية برأس الفتاة، ويتصرف وكأن كل شيء طبيعي، حتى إنه يطلب بعض الشاي من الخادمة المرتجفة هناك.

كانت صوفيا الآن نائمة أو هكذا بدت، التفت فير بعد أن نزع عويناته وصار المكان شبه مظلم، لم يفهم آدومان كيف أظلم المكان مع أنهم في وقت مبكر من الصباح:

– باتت جاهزة سنيور هولويس، هيا.

كانت صوفيا مستلقية وعلى رأسها خوذة ما، يخرج منها أنبوب كبير يتجه إلى الأعلى ومظهره غريب، تراجع آدومان للوراء.

حينما بدأ جسد خوليوس بالتوهج، كان يتوهج في كل مكان فيه وفجأة اختفت البزة السوداء، وطال شعره القصير لتسقط على ظهره العاري جديلة طويلة باهرة، كان على ظهره علامات لم يفهمها آدومان وظهر شكله الأمازوني، كاد يتوفى آدومان من شدة الذعر، حينما فتحت أجنحة فراشة ملونة على ظهر السيد خوليوس ثم أومض ذلك الجسد فجأة بقوة ليتحول إلى فراشة صغيرة جداً ثم دخلت من الأنبوب الكبير وعبرته إلى رأس الفتاة ليختفي داخله.

وقع آدومان على ظهره مذعوراً وصاح:

– رباه ما هذا؟

كان فير الآن يشرب الشاي الذي وصل بلا تحرج مما يرى أمامه وقال ببساطة يحسد عليها:

– لقد دخل إلى عقلها الباطن، سوف يأتي ليأخذك الآن فاستعد.

استدار آدومان للوراء كي يهرب بجلده هلعاً، ولكنه فجأة أومض بقوة واختفى من المكان.

ليصدح صوت فير بضحكة عالية جداً، استرخى على إحدى الأرائك وقال:

– سوف أحظى ببعض الوقت لنفسي، هيه أنت هناك أحضر بعض الكعك والحلوى هذا الشاي المر في حاجة لطعم حلوٍ الآن..

* * *

الفصل السادس

رحلة في عقلها الباطن

كان آدومان الآن يطير في مجاهل لا يفهمها وصار يصيح مـــن الذعر:

– رباااه أين أنا رباااه.

أمسكت به يدٌ قوية فجأة واستدار ليرى خوليوس كما رآه في أول تحوله يقف في الهواء وعلى ملامحه الأمازونية الهدوء، همس له:

– اهدأ يا بني، لا شيء مخيفًا هنا أرجو أن تتحكم في ذعرك كي نتمكن من العمل على الفور.

obeikandl.com

سالت دموع آدومان من الانفعال الشديد.

كان يرتعد وهو يطير في المكان:

– سيدي ما هذا؟ لِم لم يخبرني أحد عن هذا.

قال خولوليس من بين خصلات شعره البديع التي تتطاير بعيداً عن وجه أكثر وضاءة مما عرفه يوماً:

– ولم تراها سُميت بمؤسسة البرق. ألم تسأل نفسك على الأقل هذا السؤال؟

هز آدومان رأسه في نفي، ثم تفحص المكان من حوله وقاده هذا إلى تأمل خوليوس، كان في زي يغطي صدره حتى منتصف فخذيه بجسدٍ مفتول تماماً، برونزي ساحر، على زنديه أسورتان من الكهرمان وعلى كاحليه مثليهما. شعره المجدول ينتهي بشيء مثل إبرة حادة وجناحاه شفافان إلا أنهما يعكسان الألوان الصفراء والبرتقالية والحمراء في توهجٍ ولمعان.

هدأت روحه لسببٍ ما، وعلى الأقل عرف عما كان يقوله الجميع عن اختلاف خوليوس عن الآخرين، كلمة يختلف لم تعد تفي بالغرض هنا، فلا شبيه له فيمن عرفهم جميعاً.

كان المكان عبارة عن كهوف عدة كلها مظلمة وخوليوس يضيئها بشيء ما، يشبه قطرة ما جامدة لامعة بالضوء الأزرق:

– أين نحن الآن؟

– في كهوف عقلها الباطن إنه مقرف، لم أر كهوفاً قط، لقد رأيت عقلاً باطن على شكل فندق، أو مدينة أو حتى بيت صغير، لكن بصورة كهوف فهذا دليل على حيرة وظلام هذه الشخصية، وحتى ضياعها في نفسها.

بهر آدومان مما يسمع، وما يسمعه هو شيء لم يطرق مسامعه قط، وهمس بصوت خافت:

– رباااه.. إذن ليست مرتك الأولى سيدي في عقول الآخرين؟

كانا يسيران حينما همس خوليوس:

– كلا يا بني، إن هذا عملي الحقيقي، هنا لدي خبرة كبيرة ومعرفة بالعقل وكيف يُخفىَ كل شيء هنا في هذه المجاهل، نريد أن نبحث عنها لابد أنها موجودة في مكان ما مختبئة، قد ترى شكلاً مخيفا لها آدومان فلا تخف، الناس هنا يبدون بصورة مختلفة، بل لنقل إنهم يبدون بصورتهم الحقيقية.

هز آدومان رأسه متفهماً ولم يكن متفهماً ألبتة.

سمعا الآن صوت فتاة صغيرة تلعب وتمرح:

– أنا الأجمل، الحرية لي، أنا الأقوى حتى لو لم يعلموا.

كانت تغنيها وأرسلت بصوتها الطفولي المرتعش، رجفة في أعصاب الشاب الجديد على هذا كله.

خوليوس:

– هنا، لا بد أنها هنا.

التفت إلى آدومان ومرر يده عليه لتظهر هالة من النور حولهما:

– قد تكون مدججة بالشر فتحاول طردنا، لذا علينا أن نحمي أنفسنا، إياك والتحدث حتى آمرك بهذا.

أصبح بدن آدومان الآن قطعة من الفزع وإن بدا هادئًا في الظاهر:

– نعم.

دخلا المكان، كان حجرة من الكهف وفيه جزء يتحول إلى غرفة أطفال قديمة الطراز فيها العديد من الألعاب الغريبة المظهر وعلى الأرض تجلس فتاة ما، إنها صوفيا؟ ولكنها أصغر، بعمر مراهقة والغريب أنها تبدو طفلة في زيها وشعرها المجدول جديلتين قرب أذنيها:

رفعت عينيها الزرقاوين قالت:

– من أنتما؟

قال خوليوس ببساطة:

– أين والدك؟

الفتاة:

– في مكان ما، أنا أبحث عنه منذ عدة أيام.

رفعت له لعبة ما وقالت:

– هل تلعب معي؟

قال خوليوس وهو يدور في المكان متفحصاً:

– لم تختبئين هنا، أنت تعلمين أن لديك عملاً هاما لتقومي بـــه، ومع هذا تختبئين هنا في غرفة الطفولة، ألم تلاحظي أنك كبرت؟

رمقته بعينين حاقدتين وهمست:

– من أنت لتحاسبني بهذه القسوة.

قال خوليوس بدون رحمة تذكر:

– أنا صوت العقل، عليك أن تراجعـــي نفســـك في ظلمـــك لنفسك وأهلك؟ العائلة كلها تنتظر منك أن تكبري وتنضجي، وأنت ما زلت تظنين أنه من حقك أن تعيشي الطفولة لوقت أطول.

نهضت وبدا أن قدميها لم تكونا طبيعيتين، فقد ظهر لها جســـد أفعى من الأسفل وكاد آدومان يفقد الوعي من شدة الصدمة، فهمس له خوليوس:

– كل شيء يبدو على حقيقته هنا يا بني، لا يمكنهم أن يخبئوا حقيقتهم في داخل المكان الوحيد الذي لا يكذب، نحن في أعماق الحقيقة.

تقدمت إليهما فأمسك خوليوس بيد آدومان وقال:

– هيا بنا.

ثم هرعا للخارج هاربين، وهي لا تزال تصيح خلفهما بصوت يزلزل المكان، كانت تردد بلا كلل:

– غادرا حالًا، لا شأن لك بي لا شأن لأي منكما بي.

قال خوليوس:

– دعنا نبحث عن غرفة الكذب لا بد أنها موجودة هنا، كان علي أن أثير غضبها كما رأيت، كي أحَوِل تخفيها إلى حطام.

كان أدومان يصيح:

– سيدي.. غرفة الكذب! كيف تبدو؟

– سوف تعرفها حالما تراها.

صارا يطيران بمساعدة خوليوس الذي كان يرفرف بجناحيه بخفة وتحتهما صوفيا تلحق بهما بطريقة يائسة حتى رأى آدومان من مكانه كهفًا مغلفًا بالكثير من القيود والأقفال وعليه كتب:

(الحقيقية، الصدق، النزاهة، لكن هذه الكلمات كلها مغلقة بالأقفال والحبال).

أشار للمكان تحت:

– أليس هذا ما قصدت؟

– أحسنت صنعاً، هيا بنا افتح الباب آدومان.

حدق آدومان في خوليوس وقال بذعر:

– لم أجرب شيئاً كهذا قط سيدي، والآن لا فكرة لدي عن التصرف في منطقة غير مادية لا أعرف سيدي.

جذبه خوليوس من قميصه وقال بجدية وحدة:

– أنت شخصٌ نزيه آدومان ولهذا اخترتك، سوف تتمكن من العبور من الباب وافتحه لي من الداخل.

حدق به آدومان وغرقت عيناه بالدموع، إن أحداً لم يخبره قط بأنه نزيه مع أنه عمل طوال عمره ليكون مخلصاً صادقًا فهمس:

– سوف أحاول.

أمسك به خوليوس ودفعه بقوة صوب الباب من هذه المسافة العالية ومنها وجد آدومان يقترب من الباب بينما صوفيا تحاول أن تصل قبله لتحمي أكاذيبها.

أغلق آدومان عينيه وفكر:

– سوف أستطيع الدخول.

وبدون أن يتخيل تحول مظهره إلى وطواط أسود واخترق الباب عبر الأقفال والحبال ليجد نفسه على الجانب الآخر يطير في هواء قذر.

توقف وتلفت حوله وهو مذعور ما الذي حصل لي ليتغير شكلي هكذا، توقف ليتأمل شكله ملياً، كان جسده ممشوقًا وعريضًا كما هو على أرض الواقع ولكنه يبدو مثل وطواط أسود كبير، يداه تحولتا إلى أجنحة جلدية ناعمة ولديه مخالب، أذناه كبيرتان طويلتان وعيناه حادتان تلمعان.

سمع خوليوس خلف الباب يقول:

– آدومان، هل وصلت بسلام؟

– نعم سيدي، ولكن لقد أصبحت وطواطاً، هل هذا طبيعي؟

سمع خوليوس يجيبه بثقة:

– نعم، هذا هو شكلك في هذا العالم، تحرك بسرعة وافتح الباب.

كانت حيرة الشاب عظيمة ولكنه سأل في حيرة:

– كيف أفتح الباب، دلني؟

قال خوليوس:

– لديك مخالب صادقة نزيهة، فقط ابدأ بتمزيق ظهر البـــاب، ستراه كعروق من الدم واللحم كل هذا مجرد تزييف فحقيقته بـــابٌ خشبيٌ قديم، جرب أن تمزقه.

كان الباب كما وصفه خوليوس، ممتلئًـــا بـــالعروق واللحـــم البشري، أخاف مظهره آدومان ولكنه همس:

– سيدي هل أنت متأكد أن كل شيء سيكون على ما يـــرام؟ هذا مخيف.

أكد له خوليوس:

– نعم هيا ابدأ إن مدة هذه الجلسة ساعة وبعدها من المفترض أن نجد ما نرنو إليه.

شد آدومان من عزمه وبدأ في تمزيق الباب وصدمه كيف يذوب من بين أصابعه، كان يظن أن الأمر سيطول ولكنها ســـويعات حـــتى تمزق الباب ليظهر الخشب القديم المهترئ، تحطم بضربة مـــن قـــدم آدومان ليفتح أمام عيني خوليوس الواقف بانتظاره وشـــعت عينـــاه بالانبهار.

حدقا ببعضهما البعض لبرهة، ثم همس خوليوس برضى:

– كنت متأكدًا أني وصلت إلى الشخص المناسب، أنت قادرٌ على هذا وأكثر، أحسنت يا بني.

غرقت عينا آدومان بدموع الامتنان. صمت لبرهة كي يهدئ من قلبه النابض بالسرور. يكاد يغص صوته به:

– إن هذا كله عملك سيدي، إنني حتى لم أعلم قبل اليوم أن لدي قدرات خارقة.

دخل خوليوس المكان، وربت على كتف آدومان الوطواط، ثم مدحه هامسًا:

– سأخبرك المزيد عن هذا حينما نخرج فلا تفكر في الأمر الآن.

استدارا معاً بسبب تحطم الباب الذي يحمي الأكاذيب ظهر الآن بجلاء بهو واسع داخل الغرفة القديمة التى تغرق في العفونة، كان يوجد فيه خمسة أبواب كتب على كلٍ منها كلمة واحدة وحسب، كانت الكلمات كالتالي بالترتيب:

– التزيف– الكذب المستمر– أنا الأجمل– طفلة إلى الأبد– الغرور.

تفحصها خوليوس ملياً ثم قال:

– هذه فتاة لم تكن تحاسب نفسها على أي شيء خطأ تقوم بفعله، إن أبوابها لم تشطب أو تشمَع ،كلها تعمل كما لو كانت ملكة الصواب في العالم، تباً لهذا النوع من الناس.

لم يفهم آدومان وتساءل:

– لم أفهم ما تقصده بالأبواب المشمعة!

أجابه:

– المرء يا بني يمتلئ بالأخطاء والعيوب وهذا شيء طبيعي، وهو حينما لا يحاسب نفسه على طبيعته السيئة أو يرفض التغيير للأفضل، تظل هذه الأماكن مفتوحة، يغذيها المرء طوال الوقت أكثر وأكثر على النيات السئية والطباع الرديئة حتى يأتي على أحدهم يوم يكون فيه قد تغير تماماً، فلا يعود يعرف نفسه ولا يعرفه الآخرون، انظر أبوابها كلها تعمل، وهذه مناطق العيوب التي يتوجب على المرء تفحصها طوال الوقت ليكون في أفضل حال نفساً وروحاً، لنرَ ماذا يوجد هنا.

أخرج ملفاً من الهواء وقال:

– باب التزييف إنه كبير ولامع، هه شيء مضحك.

أشار آدومان إلى بابٍ آخر:

– الكذب المستمر يعمل أيضاً.

أشار خوليوس إلى الباب الثالث:

– أنا الأجمل، باب كبير هو الآخر.

فكر آدومان لِم يفكر المرء أنه الأجمل، فهذا شيء يقدره الآخرون وحتى لو كان المرء يعلم أنه وسيم ليس عليه أن يفكر بهذه الصلافة.

وصل إلى باب الشر الذي يغذي معظم هذه الأبواب:

– الغرور.

قال بصوت خافت:

– سيدي هذا الباب لديه عينان، إنه يحدِّق بنا.

وصل خوليوس إلى الغرور، قال:

– إن خلفه شيء مقزز يا فتى، دعنا ندخل هنا وإن نجحنا في قتله فسوف توصد بقية الأبواب بشكل تلقائي.

آدومان متعجباً:

– كيف هذا سيدي؟

خوليوس وهو يتوقف أمام الباب:

– لأن مصدر كل الهراء الذي يفعله الناس من أصغر ذنب إلى الأكبر هو الغرور، إن لم تكتشف هذا مبكراً فأنت مقبل على هلاك.

التفت آدومان خلفه ولاحظ أن صوفيا تقف في الخارج لم تحاول أن تدخل فقال مشيراً إليها:

– عجباً إذ لم تلحق بنا.

خوليوس وهو يستعد:

– لن تواجه نفسها لذا لن تدخل هنا، لقد زوَرت الباب بكلمات الصدق والنزاهة لتكذب على نفسها وتستحوذ على ما ليس من حقها، وحتى إنها أقفلته جيداً كي لا تصل إلى هنا حتى لو أرادت، هي نوع مقزز من البشر أكره التعامل معه.

فكّر آدومان.. صحيح لِمَ ستدخل هنا، إنها لو رأت أسماء الأبواب هنا ستنوح وتبكي على الحال الذي أوصلت نفسها إليه.

همس خوليوس موجهاً الحديث إلى الغرور:

– أنت باب جميل، لم لا تفتح لنا؟

سمعا صوتًا لامرأة عجوزٍ تجيب:

– لم علي أن أفتح لحشرة وحيوان طائر إنكما مقززان.

لم يصدق آدومان ما كان يسمعه فقال خوليوس:

– نعلم أننا مقززان لهذا نريد الدخول، نحتاج التعلم كيف نصبح رائعين مثلك.

استضاء وجه الباب وبدأ بالانفلاج:

– أنت محق، أنا أعرف كل شيء وسوف أتمكن من تخليصكما من قبحكما.

اختفى الباب ودخلا تحت دهشة آدومان.

هناك وجدا المرأة العجوز نفسها صوفيا تجلس على عرش من الكلمات القاسية النابية الكثيرة والدموع والوجوه الحزينة لناس متعددين، كاد يتراجع من الفزع فقال خوليوس:

– يا بني، لا تخف، إنها زيف، هذا العرش صنعته من الوقاحة والصراحة المؤلمة للآخرين، من الفظاظة، فكلما حزن أحدٌ بسببها تسعد هي وتفرح وتشعر أنها أفضلهم، بيد أنها في الحقيقة كما ترى الأكثر قبحًا بين الجميع وذلك ليس بسبب شكلها ولكن ما تراه يجلس على العرش هو سريرتها، وسريرتها مسوءة.

تذكر آدومان بشكلٍ تلقائي أخاه وشعر بالحزن. فكر ماذا لو دخلنا عقل أخي ماذا سنرى؟ لا أريد حتى أن أعرف ماذا يجري هناك، هل سريرته مسوءة مثل هذه الفتاة، إن السرائر هي الحقائق التي ترتكز عليها شخصياتنا الأساسية.

قال خوليوس بصوت خافت:

– يا بني، لا تفكر الآن في شيء عدا عملك، إنني قادرٌ على الأقل هنا على رؤية سير أفكارك لا تخش على شخصٍ خسركم برغبته الخاصة، إن الناس حتى وإن كانوا من دمك أحياناً يجب أن نحررهم من مشاعرنا الثمينة حينما لا يستحقونها.

سالت دموع آدومان بشكلٍ تلقائي.

قالت المرأة بصوتها القبيح:

– ماذا تريدان أيها القبيحان؟

غضب آدومان مما يراه فرده خوليوس للوراء:

– على ماذا تريدين أن تحصلي كي ترضي؟

وضعت رجلاً فوق أخرى وكانت الأكثر قبحاً من أي شيء رآه آدومان، أجابت بلا تردد:

– أريد أن أحصل على الأموال الموصدة في الخزائن حيث يعزلها عني والدي المتوفى والذي يراني نكرة منذ كبرت.

– لِم يراك نكرة، أنت فتاة جميلة ولا تشكين من شيء.

صاحت بصوتها المرعب:

– أعلم أنني جميلة، لست في حاجة لواحد مثلك كي يخبرني

بهذا، أنا في الحقيقة عشت حياتي أجمع المال وكل ما أريده عن طريق الاحتيال، للأسف اكتشف والدي هذا في وقت مبكر، فقد أحجم عن معاملتي كما يجب وبدأ يراقبني في كل ما أفعل أو أقول ،كم أكرهه.

قال خوليوس وهو يقترب منها بهدوء:

– حقاً؟ هذا ليس من حقه، لقد ظلمك.

ثم همس لآدومان:

– اذهب من الخلف ومزق العصب بمخالبك ستجده هناك كبيرًا يغذي أسفل العرش من الوراء.

آدومان:

– ألن تهجم عليَّ؟

– وماذا لو فعَلَت، أنت شاب قوي جداً.

اتجه آدومان للخلف يتحرك بجناحيه، كان شعوراً غريبا عليه أن يكون طائراً هكذا، وصدمه كثيراً أنها كانت تحدق بخوليوس فلم تلحظ اختفاءه من أمامها بسبب لونه الداكن كما أنه خفيف الحركة، سمعها تقول بحقد:

– كيف يكون لك هذه الأجنحة الجميلة والألوان الزاهية وأنا مظلمة بهذا الشكل أريد شكلك.

خوليوس ببساطة دون أن يرف له جفن:

– يمكنك الحصول على أجنحتي تعالي.

قالت وهي تحاول التحرك بصعوبة:

– إن هذا العرش اللعين يثبتني إليه، لم أستطع النهوض من هنا، أنا أحاول فعل هذا منذ سنوات.

لاحظ آدومان من خلفها أن العرش يغذي بدنها بعروقٍ ما، وهي مثبتة إليه بقوة هذه العروق والأوتار الغضروفية، كان أمـــرًا منفـــراً بشدة وشعر بمعدته تعترض.

حينما أصبح في الوراء همس:

– سيدي.

سمع خوليوس يقول له في عقله:

– آدومان، انتظر حتى أغرز فيها إبريتي.

اقشعر بدنه وهز رأسه في استعداد، قال خوليوس لها:

– ماذا تتمنين غير هذا أخبريني، ما جُل أمانيك؟

قالت بصوت مروع:

– أريد أن أكون الأفضل في كل شيء، أن أحصل على كل المال وأجعل الجميع يرضخون لأمري، أنا أستحق أفضل معاملة كانت.

لم يصدق آدومان هذه الصلافة والتكبر، ولكنه بقي يستمع في هدوء واستعدادٍ كامل.

مد خوليوس لها يده وقال:

– حسنا، إن كان هذا هو ردك النهائي فمدي يـــدك إلي وإن استطعت الإمساك بي قبل أن أمسك بك فسوف أستسلم وأجعلـــك تملكينني.

شعت عيناها الآن وكانت متأكدة تماماً أنها قادرة علـــى كـــل شيء، فنهضت بالكاد ومدت يدها لتقبض على جديلة شعره حيـــث كان اقترب منها كثيراً وحالما فعلت وأمسكت الجديلة حتى ارتفـــع طرف الجديلة بإبرة طويلة ذهبية لامعة وكان خوليوس هادئًا حينمـــا قال:

– إن الطمع هو أكثر الخطايا حمقاً وبلاهة، لا تمدي يـــدك إلى الفراشة إن لم تعرفي ما هي على الحقيقة.

ثم غرس الإبرة في رأسها من الأعلى وأمر بصوتٍ حاسم:

– آدومان، العصب.

انقض آدومان على العصب ومزقه بمخالبه في لحظات حـــتى إن سهولة الأمر صدمته.

سمعها تصرخ وتصرخ وحينما عاد إلى حيث كان خوليوس يقف، وجدها تذوب وتذوب ،كأن أسيداً حارقًا صب على رأسها، صاحت بهما:

– تباً لكما من أين أتيتما، تباً.

حالما اختفت تماماً من فوق العرش حتى بدأ العرش يذوب من تلقاء نفسه...

حذر خوليوس وهو يشد يد آدومان معه:

– هيا بنا يا بني، المكان سينهار.

غادرا معاً حتى أصبحا خارج غرفة الكذب وحينما تهاوى كل شيء على أعقابه بدا مكاناً خالياً مثل فجوة في الكهف الكبير، كانت مظلمة ولا شيء فيها.

كان آدومان يبكي بلا سببٍ محدد وشعر أن شيئًا تغير فيه حينما رأى بعينيه كيف تبدو حقيقة الإنسان من الداخل، حينما تتجسد المشاعر وكل شيء ليصبح مادياً.

وفكر في ذعر كيف أبدو من الداخل، منح خوليوس نظرة جانبية وهل دخل إلى عقلي إذن قبل أن يوظفني؟

تراجع خطوتين للوراء على الأقل كي يلتقط أنفاسه.

سمعا الآن صوت فتاة في العشرين خلفهما تقول:

– كيف يمكنني أن أقوم بواجباتي؟ إن أحداً لم يعلمني ألبتة كيف أصبح ناضجة.

استدار آدومان للوراء، لاحظ أن الفتاة صوفيا التي كانا يهربان منها قبل لحظات، كيف نهضت الآن لتصبح آنسة طويلة كما هي على أرض الواقع، كانت ملابس الطفلة التى عليها قد تمزقت وعادت إلى عمرها الحقيقي، قال خوليوس وهو يستدير إليها:

– أنتِ لم تحاولي يا بنيتي أن تخرجي من عالم الطفولة حينما انتهى وقتها، لا أحد يظل طفلاً إلى الأبد، إن كل امرئ يعيش عمره كما يجب، وحينما تدخل مرحلة قديمة على مرحلة جديدة فإنها تفسد نضجها وسرعة تحولها إلى الصورة الكاملة الخاصة بها، أنت في حاجة لإعادة صياغة تفكيرك في نفسك وكيف ترين الأمور من حولك، إياك والظن بأن لا شيء يتم الاقتصاص منه حتى ولو طال بك المدى، لا بد يوماً سيقُتَص لناس منك.

بكت صوفيا بكاء حقيقياً وهو بكاء يمزق نياط القلب، تفاعل معها آدومان بصمت متذكراً أخاه وكم رجا أن يستيقظ عقله هو الآخر ويعود إليهم.

قال خوليوس وهو يمد الضوء الذي كانا يستدلان به على طريقهما:

– خذي هذا المشعل الروحي، لقد وجدته ملقًى في مكان ما هنا، إن مشعلك الروحي كان منطفئاً منذ سنوات عديدة، كيف قضيت عمرك تبحرين في أيامك بدونه يا صغيرتي؟! كم ظلمت نفسك، والدك وأهلك أجمعين.

أخذت منه المشعل وصوتها يتهدج بينما تقول:

– لم أعلم أن لدي مشعلاً روحيًّا خاصًا بي، لقد ظننت أنني بلهاء.

كان آدومان يضع يده على فمه من صدمته، لم يكن هذا ضوءاً جلبه خوليوس معه كي يضيء الطريق، بل كان شيئًا وجده هنا، إنه جزء منها، وهو يشع بسنا رقيقٍ جميل.

قال خوليوس وهو يحثها على السير:

– لا أحد أبله، لكل امرئ منا دليلاً روحي خاص به يخلقه المولى معه من الداخل، لذا علينا أن نجِدَّ في البحث عنه حتى نستطيع سماع صوته، هو صوتنا الحقيقي الصادق في النهاية يا صغيرتي، هيا دلينا على مكان براءتك، تحتاجين للعمل على سريرتك المتوفاة.

سارت أمامهما بهدوء وكلما خطت خطوة إلى الأمام تتبدل ملابسها الممزقة إلى فستان أبيض طويل ساتر وجميل، استرسل شعرها الكستنائي على كتفيها ومن ثم هبط إلى خاصرتها وتبدل وجهها إلى

وجه وضاء، وصلوا جميعا إلى زهرة ذابلة في حوض كبير جف ماؤه، همست له:

– أظن أن هنا براءتي، لم أعلم قط أنني أعتبر بريئة، هذا غريب! لقد كنت أمثل أنني كذلك، ولكن إن كانت براءتي ذابلة هكذا فكيف كنت أظن أنني بريئة؟

بدأ خوليوس ينظف الحوض القذر مما فيه وأجابها:

– المفترض أننا لا نلصق بأنفسنا صفات، لأنه إن كان المرء طيب القلب فهو حتى لن يعرف أنه كذلك، وسيظل يتصرف وفقاً لطيبته هذه حتى مع الأوغاد، والأمر ذاته ينطبق على البراءة، كيف يمكنك أن تنعتي نفسك بالبريئة بينما في الحقيقة لم تكن هذه حقيقية سريرتك، كان الله في عونك.

بعد أن أصبح الحوض نظيفاً قال خوليوس:

– لا يمكنني أن أفعل شيئًا بعد هذه المرحلة، فملء الحوض هذا من شؤونك وحدك، سوف تعملين كثيراً لتعيدي ثقة الآخرين بك ومن ثم الحصول على الماء الزيه الذي سيعيد إلى براءتك رونقها ويعيدها للحياة بالتالي يعيد ولادة سريرة جديدة لك، من أجل هذا اعملي.

كانت دموع صوفيا لا تتوقف، آدومان يقف مشدوهاً مما يرى، إن العالم الداخلي مكشوفٌ واضح وصريح لا شيء يمكن أن يستر هنا، فالنفس لا تكذب ألبتة.

جلست عند الحوض وقالت:

– سوف أحاول، لدي الكثير لأعوض عنه.

هنا التفت خوليوس إلى آدومان:

– أحسنت صنعاً آدومان، تصرفت كشاب عاقل وقوي، أحيي فيك شجاعتك في مكان جديد عليك.

لم يعرف آدومان بم يجيبه حيث إن عيني السيد خوليوس الآن حاسمتان تلمعان بلون ذهبي خلاب، ألزمه الانبهار الصمت.

قال خوليوس للفتاة:

– سوف نغادر الآن، إنني أتوقع منك الكثير.

استدار وأخذ بيد الشاب:

– هيا بنا، تبقى القليل في الخارج وبهذا سنكون أنهينا عملنا اليوم.

تلفتت آدومان حوله وقال:

– كيف سنخرج من هنا؟؟

وانتابته حالة من الهلع المفاجئ، ربت خوليوس على يده وقال:

– لا تقلق، هذا عملي أنا.

أمسك بيده ثم وضع الأخرى على جبين آدومان فأغمض عينيه رغماً عنه، ليجد نفسه بغتة على أرض المكتب الذي كان فيه مستلقيًا.

فتح عينيه بينما يؤلمه الضوء الساطع الداخل من النافذة، ثم سمع صوت فير يترنم بأغنية ما، رآه جالساً هناك في هدوء وشعر بالأمان والسلام فجأة، فاعتدل وبدون شعورٍ منه بكى.

كان هذا كفيلاً بجعل فير يصمت احترامًا لصعوبة تجربة آدومان الأولى من نوعها عليه، ولم يمر شيء من الوقت حتى توهج المكان وظهر خوليوس من العدم.

كان في وسط الغرفة، يهبط بهدوء على الأرض فيما ملابسه الأساسية بدأت بالظهور ومظهره الأمازوني بالتلاشي.

مسح آدومان عينيه خجلاً، شعر بقلبه ينبض بمشاعر مختلطة، نما احترمٌ من نوعٍ آخر لهذا الرجل الغامض، كيف وصل إلى هذه المرحلة من الشفافية بحيث يتمكن من قراءة النفوس المعذبة والمعذِبة بكسر الذال، نهض آدومان لكنه شعر بالدوار فقال فير:

– أنصحك بالجلوس قليلاً ليس الانتقال من هناك إلى هنا بالأمر اليسير.

استدار خوليوس إلى فير وقال بصوت هادئ وكأنه لم يفعل شيئًا غير عادي قط:

– هيا أيقظها، لقد حطمنا حصونها النفسية، سيكون الحديث معها سهلاً الآن.

اعتدل فير وهمس وهو يطفئ جهاز المنوم الذي كان يبقيها في حالة بين النوم واليقظة:

– أنت تجترح المعجزات سنيور هوليوس.

بمجرد أن أُطفئ الضوء عن الخوذة حتى فتحت صوفيا عينيها، كان آدومان في حالة من الفضول يراقبها كي يرى ما التغير الذي سيطرأ على شخصيتها بعد أن تخلت عن كل الزيف الذي كان تتمسك به برغبتها.

اعتدلت مليًا ثم همست بصوت خافت:

– أشعر بالعطش.

نهض آدومان وجلب لها كوب ماء كان على مقربة، جرعت منه القليل ثم منحت آدومان نظرة متأملة وهمست:

– هل تحدثنا فى الماضى فى يوم ما.. أظن أنى أعرفك!

شعر بالدهشة:

– كلا آنستى، إنها المرة الأول فى مكتبك أتمنى أن تكوني بخير.

غرقت عيناها ببعض الدموع وهمست:

– إن جلسة (الحديث الداخلي) غريبة فأنا لا أتذكر شيئًا، هل نجح الأمر؟

خوليوس بجدية:

– نعم نجح، إذن أخبرينا هلا أوضحت لي ببساطة ما الذي يجري معك بحق، بدل أن أحرجك أمام موظفيك وخدمك، على الأقل عرفنا مصدر الرسائل التي كانت تصلك، فإن لم تعترفي من تلقاء نفسك؛ فسننهي عملنا معك اليوم ونعود أدراجنا، نحن لا نعمل مع منافقين.

اعتدلت في جلستها وهي تحدق به في تعجب:

– لقد ظننت أنكم لن تكتشفوا ذلك، ولكن حقاً أنتم بارعون.

ضحك فير على التعليق وقال:

– أنت طلبت فريقنا كي يتحقق من مصدر مجهول لتهديد وأعتقد أن التهديد كان منذ البداية من الداخل أليس كذلك؟

أطرقت برأسها خجلاً ثم همست:

– أنا التي كانت ترسل لنفسها الرسائل، كي أظهر وكأنني في وضع خطر وتهديد، فيسرع المحامي بالتوصية على منحي الثروة على الفور دون الانتظار إلى بعد مرور خمس سنوات، أيضاً لا أريد أن يأخذ منها بنو عمومتي شيئًا، أنا.....

صمتت ملياً..

قال فير وهو ينهض:

– سأحتاج منك بعض الإفادات في الأموال التي اختفت من بعض الحسابات السرية الخاصة بوالدك والتي اكتشفنا اختفاء بعض الأرصدة منها بدون سبب وجيه.

لم تتردد بالقول:

– لقد كنت أرسل من حسابات والدي بعض الأموال إلى حسابات أخرى تحسباً لما قد يفعله بي لو مات فجأة، في آخر أيامه كان يوكل إلي بعض المهام وبطريقة ما استطعت تسريب بعض المال من هنا وهناك، لأجمع لنفسي شيئًا، لم يكن والدي يرى أنني فتاة كُفؤة لإدارة شركته التي تعب في إنشائها من الصفر، لم أوفق إلى إقناعه بأهليتي لتحمل المسؤولية، ولكنه اكتفى باثنين من بني عمومتي اللذين كانا يكبراني في العمر فكان يعلمهما كل شيء، وحينما كبرت كانا قد حصلا على رعايته واهتمامه، بينما أنا ابنته لم يهتم كثيراً بمساعدتي فأقف معه في عمله جنباً إلى جنب وأسانده.

اعترض آدومان الآن:

– أخشى أنك مخطئة في هذا التفصيل، فقد وردتني أدلة دامغة لا تقبل الشك بمحاولاته العديدة أن يدخلك معه في العمل، ولكنك كنت تفضلين الاحتفال على النهوض صباحاً للعمل معه، كما أن أحد

بني عمومتك خصص من وقته لتعليمك تفاصيل العمل في الشركة، التي حصل فيها على وظيفة بسبب مجهوده وليس لأن عمه كان وسيطة، إنه شاب تعب كثيرًا على نفسه كي يصبح على ما هو عليه الآن، فأن تقفي اليوم لتقولي إنهما أخذا كل شيء منك ظلمًا فذلك جور صريح.

أرعبها كثيرًا دخوله في صلب الموضوع وحقيقة أنه عرف كل شيء بسهولة، قالت بقلق:

– حسنا وربما ما تقوله صحيح، ولكنني كنت صغيرة، لم أرد أن أزج في العمل في وقت مبكر من عمري، لم أفهم في ذلك الوقت أهمية أن أتعلم شيئاً، ظننت أن كل شيء دائم وأنني سأظل أحصل على المال مدى الحياة.

آدومان:

– إذن لا تلومي الآخرين حينما يسبقونك إلى النجاح والمراكز الأولى، حسبك أن تبدئي في التحرك في الاتجاه الصحيح الآن لتعوضي الوقت الذي فاتك في المرح، ليس من حقك أن تسلبيهم مجهودهم فقط لأنك تريدين المزيد من المال في محفظتك.

التزمت الصمت فقد أسقط في يدها وباتت عارية الروح أمامهم، قالت بصوت خافت:

– حسناً صدقت، سوف أستمع إلى تعليمات السنيور فير لأخرج من هذه المعضلة دون أن أفقد المزيد من ماء الوجه والسمعة، يكفي ما حصل حتى الآن، إنني جادة في التغيير.

كان خوليوس يجمع بعض الأوراق في الملف وهو يقول لها:

– هذا ممتاز، كان من المشرف لنا العمل معك، سوف نعود لنطمئن على حالك لاحقاً، أرجو أن تأخذي نصائح السنيور فير بعين الاعتبار إنه رجلٌ محنك، سوف يصلح وضعك مع أفراد العائلة الغاضبة ومع الموظفين الحانقين في الشركة، طالما تتعلمين وتتبعين الطريقة المثلى في كل شيء تفعلينه سيكون كل شيء على ما يرام، واضعة نصب عينيك التراهة والصدق.

غادر الجميع القصر وقد زالت الشمس، تغير الهواء إلى نسائم عليلة وأجواء نقية، كان آدومان يسترخي في السيارة حيث يجلس بينما خوليوس وفير يتبادلان المعلومات حول ما حصل، أصاب آدومان الإرهاق الشديد من رحلتهما العجيبة، وغفى لبرهة حتى موعد وصولهم إلى المحطة حيث سيعودون إلى بارونزا الآن.

obeikandl.com

الفصل السابع

خسائر عاطفية

مرت بعدها الأيام تتوالى سراعًا والعمل من هذا النوع لا يتوقف، كان تحول خوليوس إلى فراشة أمر يفزع آدومان في كل مرة، ولم يكن يحتمل ألبتة أن ينتقل مع خوليوس بتلك الطريقة المفاجئة، ذلك مجهود متعب ومرهق على الدوام.

وتعرف على نوعية عمل فير حيث كان تقني النقل الروحي، مثله يوجد كثيرون في المؤسسة يعملون هذا العمل الخاص مع فرسان، لكن لا أحد من الفرسان لديه قدرات خوليوس في الانتقال البدني الكامل إلى العقول المعذبة، خلال الستة الأشهر الأولى من عمله مع خوليوس كان يجري خلف الأوامر والمهام وهو يتعرف في كل لحظة

obeikandl.com

إلى كل جديد، لكنه قرب انتهاء العام الأول أصبح ضليعاً في متطلبات السيد خوليوس ومستوى الجودة التي يرغبها في العمل، اعتاد أن يهب إلى القيام بالجدول الروتيني دون أن يطلب منه ذلك، وهكذا، عرفا كلاهما أنهما فريق مدمج من الحكمة الممزوجة بالغضب، والصمت الممزوج بالدهاء.

* * *

آدومان الآن يسير نحو محطة القطار مع السيد خوليوس يحمل معه كيس الخبز وبعض الفواكه، بينما خوليوس يحمل كوبه الذي لا يفارقه ويسير بهدوء، ينتظران وصول القطار تحت جنح الظلام، أصبح هذا روتينًا طبيعيًا يقومان به كل نهاية أسبوع، أخبره خوليوس ذات مرة بأنهما يعودان في نفس القطار دوماً فلم لا يعودان معاً وفي طريقهما يرتبان لجدول الأسبوع التالي.

تعلم آدومان ألا يتحدث عن نفسه مطلقاً أمام خوليوس فهو لا يبدي اهتماماً به على الصعيد الشخصي، صار يتعلم منه الكثير في الفرص القليلة التي يسترخي فيها خوليوس ويقرر أنه يريد أن يتحدث بتبسط، كما باءت محاولات آدومان بالفشل لتقصي حقيقة خوليوس ومسألة تحوله إلى فراشة في العالم الداخلي، كيف يحدث؟ وليس هذا فحسب، بل يحوله إلى خفاشٍ في كل مرة يأخذه إلى هناك، بقيت كل هذه الأسئلة يسألها آدومان نفسه فتبقى عالقة بلا جواب.

قال خوليوس وهو يتأمل الكيس في يد آدومان:

– هل هذا عشاؤك؟

– إنه عشاء إخوتي وأمي، سوف أعـــود الآن وأســـاعدها في تحضيره.

منحه خوليوس نظرة لا معنى لها:

– لديك إخوة؟

فرح الشاب بهذا التطور العظيم حيث يسأله خوليوس عن شيء شخصي:

– نعم سيدي كلهم أصغر مني.

– إذن أنت الأخ الكبير.

أشاح آدومان حينما سمع هذه الكلمة وقال بصوت خافت:

– ليس على وجه الخصوص، مؤخرًا أصبحت كذلك.

قال خوليوس حينها بهدوء:

– ليس كل أخٍ كبيرٍ يقوم بواجباته يا بني، في بعض الأحيـــان تنقل هذه المهمة إلى الأصغر بشكل تلقائي لإنقاذ العائلة من التفكك، عليك أن تكون فخورًا بنفسك.

لا يعلم آدومان كيف يعرف خوليوس دومًا ما يجب أن يقـــال ومتى، كان كلامه على قلبه مثل البلسم البارد وهدأ روحه، ليجيب:

– شكراً سيدي لم أفكر بالأمر من هذه الناحية.

صعدا إلى القطار وجلسا إلى جانب بعضهما البعض، القطار في هذا الوقت يكون خالياً تقريباً، ولا يرتاده الكثير من الناس، رن هاتف آدومان بطريقة ملحة، فرفعه وحدق بالرقم هذا رقم غير معروف له!

قال بتعجب:

– لا أعرف هذا الرقم، عجبا! من سيتصل في هذا الوقت.

– أجب ربما هي طارئة ما.

أجاب على الفور:

– سآلو (مرحبا بالبارونزية للهاتف).

سمع صوتاً جاداً يقول له:

– هل أنت آدومان أنطوان، الأخ الأصغر لألبرتين أنطوان؟

ارتاع خاطره ونهض قائلاً تحت دهشة خوليوس:

– نعم أنا هو، من المتصل؟

– هنا المشفى العام في العاصمة هل أنت قريب من هنا.

بدأ جسده يرتعد وهو يجيب:

– أنا في طريقي لوسط المدينة، سوف آتي إليكم على الفور هل من خطب، هل ألبرتين بخير؟

– نرجو حضورك حالاً، إن أخاك في الواقع يحتضر ويتمنى رؤيتك فطلب منَّا أن نتصل بك بأسرع وقت.

حدق آدومان أمامه في الفراغ ورنت كلمة يحتضر مرارًا في عقله، هبطت يده إلى جانبه، غصت حنجرته بالحروف، لاحظ خوليوس ما يجري أمامه فنهض وأخذ الهاتف:

– أهلاً...

كان الخط قد انقطع، حدق في وجه آدومان المذعور وتساءل:

– من كان المتصل؟

– إنه طبيب ما في المشفى العام، أخي الكبير هناك لا أعلم ما خطبه، أنا... يقولون إنه يحتضر.

جلس على الكرسي وغطى فمه بكفه محاولاً أن يكتم لوعته وكان قلبه يتمزق.

تذكر آخر مرة رآه فيها كيف كانت علاقتهما قد انتهت منذ وقت طويل، لقد مرت سنوات وليس يوماً أو اثنين، أين كان طوال ذلك الوقت؟ همس بخوف:

– أنا... لا أعلم ما الذي فعله أخي ليظهر فجأة هكذا.

بقيا صامتين حتى وصل القطار وانطلق آدومان معتذراً من خوليوس، كان الشاب قد نسي كيس الطعام، وإلى حيث المشفى قطع ذلك الطريق راكضاً دون أن يفكر في أي شيء قط، ما الذي حدث؟ ماذا فعلت ألبرتين؟ يحتضر لماذا؟

وصل إلى حيث قيل له أن يذهب، وتم أخذه إلى حيث الغرفة التي كان آخوه ينازع الموت فيها، دخل آدومان إلى الغرفة وبردت عظامه، شعر أنه بلا قوى وبلا مشاعر، فهناك على السرير الهائل كان جسد أخيه العزيز قد أصبح ناحلاً، وجهه الوسيم تعلوه آثار تعب ومعاناة، كان يبدو قريباً غريباً، لا يعلم آدومان ماذا أصابه لكنه يبدو وكأنه خرج بأعجوبة من حادث سيارة أو شيء من هذا القبيل، توقف عنده حيث كان وتأمله في توجس، همست له الممرضة:

– كان ينتظرك حاول أن تتحدث إليه.

الغرفة تغرق في ضوء أزرق حزين، تقدم آدومان أكثر، شعر بالحب والعتب وكل تلك المشاعر اختلطت ببعضها البعض، همس بصوت خافت:

– ألبرت؟!

صدر أنين من أخيه، ثم فتح عينيه بصعوبة وحالما رآه يقف بالقرب منه حتى قال:

– ياه.. إنه أنت، تبدو بخير.

كان آدومان يكاد ينهار نائحاً وقال بصوت حزين تكاد تفضحه منه دموعه:

– ألبرت ماذا حدث لك؟ لم أنت هكذا؟

– لقد خسرت كل شيء يا أخي الصغير، سامحني على ما فعلته بتركي لكم بتلك الطريقة لوحدكم.

كانت الممرضة قد دفعت خلف آدومان بمقعد كي يستريح عليه وساعدته على الجلوس، غرقت عيناه في الدموع:

– خُنتنا في موضع لم نظن أن أحدًا قادر على خيانتنا فيه، لقد ألفيت أمي تعاني منذ ذلك الحين.

كح ألبرت ثم همس:

– ليس لدي عذر لما اقترفته بحقكم، أنا...

ثم صمت وسالت دموعه من بين الرضوض التي تعبئ وجهه وتجعله يبدو على مشارف الهلاك، همس آدومان وهو يحاول الإمساك بيده الملفوفة بالضمادات:

– ماذا حدث لك، كيف تغيب كل ذلك الوقت، كيف تختفي كل ذلك الوقت والآن تأتي لتقول أنا آسف سامحوني كيف تسمح لنفسك..؟

سمعه يجيبه بتعب:

– لقد كنت أفكر بنفسي فقط، ظننت أنها الطريقة المثلى لأصبح غنياً، وأن أحقق الثراء الذي لم أعشه يوماً، لقد عشنا حياة بؤس وشظف لم أكنت قادراً على الاستمرار فيها يا دمنو..

– كيف تصف حياة الكفاح والتعاون في بيتنا بالبؤس؟ صحيح أنها كانت مرهقة، لكنها لم تكن بائسة.

كانت دموع آدومان لا تتوقف بينما أخوه يمنحه نظرات صامتة ملؤها الندم الذي لا فائدة ترجى منه، همس ألبرتين:

– آدومان، أخبر أمي أنني آسف عن كل ما فعلته بها، وأنني أتوق إلى مغفرتها وعفوها عما سببته لكم من ألم وعذاب، أيضاً قدم اعتذاري الحار لمسيو ألكسندر صاحب المزرعة، أعد إليه ما تبقى من أمواله التي بالكاد استطعت العودة بها إلى بارونزا، لقد أخطأت خطأً جسيما وأنا الآن أدفع ثمنه.

– ماذا فعلت؟ حقاً وصدقاً لم لا تخبرني الحقيقة؟

– لا يمكنني أن أفصح لك عن ذلك بيد أن المشفى لديه أمتعتي التي كانت معي في الحادث، فقط أطمح إلى عفوك وحسب.

خفض آدومان عينيه، شاعراً بغضبٍ غريب من نوع جديد يتنامى في داخله. لِمَ يمكن للمرء أن يُعذب ويبطش وحينما تحين

ساعته يتذكر ما سعى بالشر في الناس فيعود يطلب الصفح البارد على الجاهز، ناسياً أو متناسياً بأنه سيغادر الدنيا وقد ترك جراحًا لا تندمل من خلفه؟ أي أنانية هذه؟! حتى في لحظة الموت تظهر أنانية من نـــوع آخر.

أجاب بصوت خافت ميت:

– ليسامحك الله، فليس لدي ما أضيفه أكثر، الزمن كفيل بدمل الجراح أخي.

تساقطت دموع ألبرت ومد يده بصعوبة ثم ربت علـــى خـــد آدومان الذي قرب وجهه منه، صار يتبادل معه نظرات الشوق مفكراً في داخله:

– أنت تركتني وحدي، لم فعلت هـــذا بي؟ كســـرت قلـــبي وفررت، لم أكن جاهزاً لأمسك بزمام الأمور، لم أكن مستعداً للبدء في أي شيء، كنت يائساً وحيداً وبلا دليل.

سمع أخاه يقول له:

– أنت الأفضل فيما بيننا، لا تتوقف عن النجاح وحقق لأمي ما تتمناه ولنفسك، أحبك آدومان.

لم يكد آدومان يجيبه حتى سمع صوت أنفاسه تتركه وعيناه تتبعان روحاً تغادر إلى حيث مكان لا يراه ولا يعلمه أحد.

بقي يحدق في وجه أخيه الذي تجمد به الوقت على حاله ذاك.

صدر صوت يدل على تغير حال نبضات القلب وتوقفها، فدخل الطبيب ليعلن عن الوفاة.

* * *

بينما آدومان يجلس عنده صامتًا، يلفه الأسى، يدمي خاطره، يفكر كيف سيوصل هذا الخبر لأمه، كيف..؟

كان هاتفه يرن فجأة، التفت إلى حيث كان صوته فوجد السيد خوليوس يقف عند الباب يحمل كيس الطعام، وهاتف آدومان ومعطفه، كانت تعلو وجهه نظرة وقورة فيها الكثير من التعاطف، وشعر آدومان وهو ينظر إلى عينيه الثابتتين، أنه ضائع فقد غادر أخوه الكبير، ماذا سيفعل؟

همس خوليوس:

– أظن أنها والدتك.

تحدرت دموع جديدة الآن وهمس آدومان:

– آه... آه...

لم يجد حروفاً ينطق بها، تقدم خوليوس إليه وكان وجوده مثل مشكاة في ذلك المكان البائس الحزين، أخذ بيده وهمس له:

– ضُم أخاك وودعه كما يجب يا بني، وإلا سوف تندم أنك لم تفعل.

تكسرت ملامح آدومان الآن وانتحب من فوره:

– سيدي... لقد مات أخي الكبير.

ثم ارتمى بحجمه الهائل وضم خوليوس لينهمر بدموع ونشيج فيهما كل حزنه، ألمه وخيبة أمله العظيمة في هذا المسجى أمامهما.

لم يحرك خوليوس ساكناً فهو غير معتاد على التعبير الجسدي بينه وبين الآخرين واكتفى بالبقاء كما هو ليمنح الشاب الوقت الذي يحتاجه كي يتمالك نفسه.

بكى آدومان بدون تحرج ولم يكن لديه القوة في الحقيقة لكي يتحدث، أو يتحرك، فقد باغته ظهور أخيه هكذا والأكثر موته المفاجئ.

بعدها أخذ أخاه في صدره وضمه، قبَّل رأسه، منحه الاحترام الذي لطالما استحقه منهم فقد قدم من حياته الكثير قبل أن يضل الطريق.

بعدها قال وهو ينظر إلى الطبيب:

– أريد أن أخبر والدتي الليلة بالخبر لكي نحضر له جنازة ملائمة، سوف أعاود الاتصال بكم.

– لا بأس، نحن آسفون لما حدث له يا بني.

لم يجب آدومان وسار في وحدة خارج الغرفة، أهكذا تظهر فجأة لتتركنا وتغادر في مثل سرعة البرق، هذا ليس من حقك.

سمع الطبيب يقول لخوليوس:

– لقد وقع حادث مروع على الطريق السريع وكان هذا الشاب فاراً من عصابة سرق منهم بعض المال، بالكاد بقي حياً، فقد كان ينازع ويطلب إخبار أخيه الصغير بما حدث منذ وصل قبل ساعتين.

أجاب خوليوس بعد أن شكره:

– سوف أتصل بك لإنهاء التفاصيل، بخصوص الفواتير أرسلها على هذا البريد، نشكركم كثيراً.

كان آدومان يشعر بالعار، لقد عدت فاراً من أشخاص آخرين انتزعت منهم حقوقهم، فجلس عنده وأرسل لأمه رسالة مفادها أنه سيعود بعد قليل.

كان خوليوس يقود آدومان للخارج وذاك مطرق في وجوم.

استقلا سيارة أجرة إلى حيث الحي الذي يقطنه آدومان لم يتفوه خوليوس بشيء خلال هذه المدة، وكان لا يزال يحمل أغراض آدومان

في يديه، حينما وصلا للعنوان لاحظ خوليوس الحي المتواضع الـــذي يقطن فيه هذا السكرتير، كانا أمام باب المنزل الجميل، همس خوليوس وهو يدفع الأجر للسائق:

– هل تحتاج إلى أن أرافقك، أم تريد أن ترتاح؟

همس آدومان بدون تفكير:

– سأخبر أمي وأنام، هكذا أحسب.

ترجلا من السيارة ثم وضع خوليوس الأغراض عنـــد البـــاب وقال:

– إن هاتفي يعمل، اتصل بي في حال حصل شيء، أما بالنسبة للجنازة فلا تحمل همها سوف أرتبها بنفسي.

كان آدومان يحدق في وجه خوليوس غير عالمٍ الســـبب الـــذي يجعل رجلاً مثله وفي مكانته يفعل كل هذا له، إنه حـــتى لا يعـــرف ألبرتين وليس هذا فحسب هو لا يعرف أي نوع من الرجـــال كـــان أخوه، ربما لو علم فإنه لن يتعب نفسه من أجله إلى هذا الحد.

ارتمى عليه فجأة وقال بامتنان:

– شكراً لك سيدي لقد فعلت الكثير مسبقاً، لا حاجة بك لأن تتعب نفسك.

ثم ابتعد وصار يحمل الأغراض بينما اختل توازن خوليوس قليلاً، أجاب وهو يغادر:

– الأمر ليس بذي أهمية، خذ وقتك، وسوف أتصل عليك في الصباح الباكر.. إياك والحضور للعمل، سوف نرتب للجنازة، هذا هو الأهم الآن، تصبح على خير.

غادر على الفور دون أن يمنح آدومان الفرصة ليعترض.

فتح الباب، وحينما دخل وجد أمه تجلس عند طاولة المطبخ وقد علا وجهها الحبيب القلق.

تبسم مغتصباً وقال وهو يوصد الباب دونه:

– مرحبا أماه، كيف كان الصغار أعتذر لتأخري عليكم.

وضع الأغراض على الطاولة الوحيدة في مطبخهم ثم تهاوى جالساً، همست له أمه في توتر:

– رباه.. ماذا حدث لك، لا تقلق على الصغار لقد تناولوا طعاماً فاض من وقت الغداء وناموا منذ وقتٍ طويل، ألن تخبرني ماذا حدث معك، أنت تبدو في حالة مزرية يا بني.

كانت عيناه الرماديتان تحدقان في وجهها، كان من الصعب عليه أن ينطق بتلك الكلمات فيحطم فؤادها وهو غير قادر على أن يفعل بها أكثر مما فعله ألبرتين مسبقا.

دققت أمه النظر إليه ملياً ثم همست:

– بحق الله أفصح!

– إنه ألبرتين أماه.

اختفت الألوان من عينيها، وبدا أنها مستعدة لسماع الآتي حينما أكمل:

– لقد فارق الحياة قبل لحظات.

ظهرت ملامح المفاجأة وجالت بعينيها في وجهه، تكسرت ملامحها ثم خفضت عينيها، همست بكلمات لم يسمعها ثم مدت يدها إليه وهي تنهض كان صوتها متهدجًا وهي تضمه:

– تعال هنا يا بني لا بد أن الأمر أفزعك كثيراً.

ضمته إلى صدرها الحنون وبكيا معاً بدون صوت، لم تسأله الكثير من الأسئلة أثناء ذلك، أرجأت الأمر حتى يهدأ، فقد كان في حالة من الذعر والفقد خشيت فيها عليه من أن يصيبه الجنون، بمجرد أن صمت وهدأ حتى أخبرها عما حدث وعما سيفعلانه غداً، إلا أنه أحجم عن ذكر الجزء الذي كان سبب موته وحقيقة هروبه من سرقة أخرى كان قد ارتكبها، لم يكن يريد أن تذكره أمه بالسوء بعد ما حصل، فقد فارق الحياة في النهاية ولا يجوز إلا أن يذكر بالخير وحسب.

******

ما فعله خوليوس صباح اليوم التالي كان صادماً لآدومان كثيراً، فبمجرد أن ظهر النور حتى وصله اتصال من أحدهم بأن كل تفاصيل الجنازة قد تم ترتيبها وحتى الدفن وما إلى ذلك، اتصل على خوليوس واستفسر منه، فاخبره ألا يقلق بشأن أي شيء، فقد قدم الكثير للمؤسسة خلال السنوات التي مضت وهذا أقل ما يمكن أن يقدمه خوليوس له، وصل امتنان آدومان عنان السماء، انتهت الجنازة في سلام وتقدم لتعزيته الكثيرون ممن عمل معهم، وحتى ألكسندر مالك المزرعة حضر العزاء واستلم العزاء كوالد لألبرتين مما جعل آدومان يشعر بهيبة الرجل وعظم أخلاقه، ليتغاضى عما فعله به في الماضي وأن يحضر بصورة رسمية فهذا بحد ذاته كرم أخلاق يندر وجوده في مثل هذه الأيام.

انتهى العزاء الهادئ، خلال ذلك الوقت ودع فيه آدومان حقائق كثيرة كان يعتمد عليها للبقاء متماسكًا، فهو الآن وحده في حمل المسؤوليات العظام مع والدته، عليه أن ينسى أنه في حاجة لأن يرفع أحدهم العبء عنه، فقد صار رجل العائلة الآن، كان قد مر على وفاة أخيه شهر، التزم فيه آدومان الصمت كنوع من التعزية الداخلية بينه وبين نفسه، إن انتظار عودة ألبرتين خلال السنوات التي مضت كان أكثر رحمة مما يشعر به وقد عرف أنه لم يعد موجوداً على أرضنا هذه.

لم يكن خوليوس يتحدث معه عن تفاصيل ما يمر به عاطفياً لكنه يرمقه بنظرات قلقة من وقتٍ لآخر، يبقي لنفسه الكثير من التساؤلات، ليمر بهذا وقتٌ طويل.

* * *

كان خوليوس يزور مكتباً في العاصمة ولم يكن في حاجة لوجود آدومان معه فطلب منه البقاء في مكتبهم الرئيسي، رتب آدومان كل الأوراق الهامة وحينما أنهى كل ما توجب عليه، منح نفسه ساعة من الراحة، كانت ساعة الراحة هذه عصية على قلبه وعلى روحه، فهو يظل يعود للحظة الوداع بينه وبين أخيه، كانت الراحة تحجم عنه مهما طلبها، والآن على كرسي العمل هوى رأسه غافيا بغتة.

مرت لحظات شعر فيها بألم في صدره، وحينما فتح عينيه وجد خوليوس بشكله الآخر كفراشة في غرفة بيضاء، كان كلاهما فيها.

أصابه الذعر فتلفت حوله، كانت الغرفة جميلة ولكنها تشبه غرفة في مشفى، كانت جدرانها كلها من زجاجٍ ومن خلف الزجاج تبدو غرف أخرى تطل كل واحدة منها على الأخرى، غرف متراكبة فوق بعضها البعض، وجد نفسه مستلقيًا على السرير يرتدي ملابس رمادية وهو في صورة الخفاش التي يتذكرها من رحلاته في عقول الناس مع السيد خوليوس.

حدق في نفسه ثم في وجه خوليوس الهادئ والمحلق على ارتفاع منخفض وأجنحته ترفف خلفه مُصدرة صوتًا يرسل سلاما وهدوءاً في الروح، فجأة تكشفت له الأمور فهمس:

– سيدي أنت في عقلي الآن؟

بدا أن ذلك فاجأ خوليوس لكنه همس:

– نعم.

استشاط آدومان غضباً وقال بحدة:

– من سمح لك؟

– إنني أحاول إنقاذك من التوغل أكثر في حزنك الصامت يا بني.

صاح آدومان وهو يحاول النهوض:

– هذا ليس من حقك، نعم إننا نعمل معاً على حل هموم ومشاكل الناس الذين توقفوا عن المضي قدماً في طريق حيواتهم، لكن أن تتطفل على عقل موظف لديك دون أخذ الإذن منه.. رباه!

حاول النهوض ولكنه لاحظ أنه مثبت، فاستدار للخلف، لم هو مقيدٌ هكذا؟

ارتعد بدنه رعباً مما رأى، كان ذراعاه وظهره مثبتان على جثة

أخيه التي كان يرقد هو فوقها، بطريقة ما كان يجلس فوق أخيه الميت، الذي يظهر الآن بصورة جميلة جداً وكأنه في عمر السابعة عشرة، شعره الأسود يلمع على جبينه ويبدو نقياً تماماً.

غرقت عينا آدومان فهو لم ير هذا الوجه العزيز عليه منذ زمن طال، كانت هنالك عروق والكثير من الأوتار تشبك ذراعي آدومان بجسد أخيه، وتحديداً بصدره، ولم يفهم لم هو بهذه الصورة؟ ولكن حينما حانت منه نظرة جانبية إلى الزجاج بالقرب من يساره، دُهش من نفسه، حيث كان يظهر بصورة ولد صغير في الثامنة من عمره.. وكان يبكي أيضاً.

عاد النظر إلى خوليوس الذي قال برزانة:

– ما زلت تتمسك بالماضي وسوف يعيقك عن التقدم.

– هذا ليس من شأنك، من حقي أن أحزن على أخي للوقت الذي أريده، لا أحد يتحكم في أمور كهذه.

قال خوليوس بصوته الرخيم:

– إن الحزن لمدة عام لهو وقت طويل جداً فأنت لم تعد تدري ما الذي يجري حولك في عالمك الحقيقي.

غرقت عينا آدومان بدموع منعها أن تسيل وأشاح للجانب الآخر رافضاً سماع الحقيقة.

مد خوليوس يده إليه بقلم وقال:

– لقد وجدت هذا القلم؟ كان ملقىً في طريق هذه الغرفة، إنها حتى بدون اسم.

كان آدومان على علم بطرق خوليوس لتجاهل أي تساؤلات أثناء الجلسة الداخلية، ولهذا فهو كان يغضب من كل كلمة يسمعها منه:

– سيدي أرجوك دعني وشأني، لن أجيبك عن شيء، فقط دعني وشأني.

هبط خوليوس على الأرض وقال:

– الحزن وإن طال سيأتي له وقت وينتهي، لا يمكنك أن تظل تغذيه أكثر مما فعلت، لقد استولى الحزن على العديد من الغرف هنا، إياك والظن بأنني سوف أتركك هكذا لمدة أطول.

حاول آدومان الاستيقاظ بكل الطرق الممكنة، لكن عيني خوليوس الحاسمتين منعتاه من الحركة، فكر أنه سوف يوقع نفسه من المقعد الذي يرقد عليه.

سمع خوليوس يقول:

– آدومان، أياك ومحاولة الاستيقاظ، أنت في حاجة إلى هذا.

تطايرت دموع آدومان وهو يصرخ بأعلى صوته:

– كلا، لست في حاجة إلى أي شيء، اخرج ودعني وحزني وهمومي.

وصرخ بأعلى صوته بطريقة متواترة حتى استيقظ فجأة في المكتب.

وحينما فعل، وجد خوليوس يجلس أمامه على مقعد بينما بالقرب منه كان كارل، ذلك الشاب الذي يحب تحضير القهوة في مقهى المركز، وكان يمسك ببعض الأدوات الطبية والتقنية غير المفهومة.

تساقطت بعض دموع الغضب، حدق فيهما بحدة ثم همس شاعراً بالعري النفسي أمامهما:

– من غير المعقول أن تغتال عقلي بهذه الصورة سيد خوليوس.

كان كارل في زي آسيوي بديع من اللون الكحلي وقال وهو يزيح شعره الحالك للوراء:

– يا رجل لم كل هذه الضجة حول عقلك المروع، ما الذي سيجده السيد خوليوس هناك على أية حال.

أشار خوليوس لكارل أن يتوقف عن الحديث:

– من حقك أن تغضب آدومان، فأنا بالفعل لم آخذ إذنك قبل القيام بهذه المهمة، لكن لا يمكنني أن أقف متفرجاً والحزن بات يسيطر عليك منذ عدة أشهر، كيف لك أن تركز في نفسك أو عائلتك إن بقيت بهذه الحالة، إنك إلى زوال لا أراك تتحسن.

نهض آدومان الآن ثم قال بصوت خافت محاولاً أن يبقي نفسه هادئًا فلا يلقي بكلام يندم على قوله:

– سيدي أنا أرفض الحديث أكثر في هذا الأمر، سوف أعود للمنزل بعد إذنك، أنا مرهق.

نهض وشعر أنه متعب بشدة، فقال كارل وهو يجمع أدواته:

– ألا تحترم حقيقة أن السيد خوليوس اهتم للحد الذي يجعله يحاول مساعدتك، إن هذا من بعض الأشياء النادرة التي باتت تحصل مذ صرت تعمل هنا، أي جاحدٍ أنت.

كان آدومان يجمع أشياء حقيبته وهو يمنع نفسه من الانفجار في وجه هذا المعتدي المتغطرس:

– إنني ممتن لكل شيء تفعله سيدي، ولكن ما أختبره الآن، هو شيء يخصني لوحدي ولن أسمح لك بالدخول في عقلي من جديد.

قال خوليوس كمحاولة أخيرة:

– لم لا نتحدث على الأقل في الأمر، لقد تركتك على هـــواك لمدة طويلة، ظناً مني أن هذا سيكون كافياً حتى تشعر من تلقاء نفسك أنك في حاجة للحديث، أما وقد مر كل هذا الوقت، فأنـــا مضـــطر لاستخدام هذه الطريقة وإجبارك على التفريج عن نفسك قليلاً.

توقف آدومان لبرهة وقال بصوت حاسم قبل أن يغادر:

– أنا موظف لديك فقط سيدي، إن مشاعري النفسية ليســـت من اختصاصك، كما وأنني أرفض أن يظهر ضعفي علانية هكذا أمام رئيسي، لذا أرجو ألا نتحدث في هذا قط.

غادر عاصفاً للخارج والرجلان يلتزمان الصمت.

بعد أن أوصد الباب دونهما، التفت كارل إلى خوليوس وقـــال بتعجب:

– لا أفهم كيف وعى لوجودك هناك، سيدي أليس هذا غريبا؟ أليس من المفترض أن لا يعلم بأنك في عقله؟ لم أسمع بهذا قط.

– نعم، صدمني حينما كان واعياً لوجودي، يبدو أنه شـــخص مختلف تماماً عن جميع الذين ولجت عقولهم، إنه أقوى بكثير مما يتصور، وهو حتى لا يعلم بهذا.

نهض خوليوس، وقال وهو يصب لنفسه كوب قهوة:

– سوف نعاود الكرة من جديد، في وقت لاحق سأكون ظالماً لو تركته يعبث في روحه بهذه الصورة المشينة.

حمل كارل أغراضه الطبية واستعد للمغادرة :

– حسناً، حينما تكون جاهزاً، أرسل إلي سأكون في المقهى.

حينما أصبح خوليوس وحده الآن صار يقلب القشدة في قهوته وهو يستند بظهره على المكتب البني، إن آدومان أكثر جلداً وصبراً مما يظن، ومع هذا فهو غير واع للحالة النفسية التي بات ينجرف إليها، لا يستحق أن يعيش في معاناة، ولكن ما السبيل إلى الخوض في عقله من جديد وبرضاه علّي أن أجد الطريقة الملائمة.

* * *

مرت بالفعل أيام بين آدومان وخوليوس وهما لا يتبادلان الحديث فآدومان أصبح غاضبًا وصار لا ينال غفوته اليومية أمام خوليوس مهما كانت المغريات.

عملا معاً في الكثير من المهام الخفيفة، التي جعلت حيرة آدومان عن حقيقة خوليوس تزداد كثيراً ولكنه أقسم ألا يطرح سؤالاً عنه قط.

كان الجميع في عائلته الصغيرة قد تقبل موت ألبرتين عداه هو، في قرارة نفسه كان غاضبًا، غاضبًا، غاضبًا لتركهم هكذا، لخيانتهم،

لتشويه سمعتهم في وسط أناس كانوا واثقين بهم إلى الحد الأعمى، كانت خيبة الأمل تأكل صدره وتحول مشاعر الألم إلى صدأ يمرضه.

أصبح آدومان عصبيًّا جداً، يسير رافضاً أن يذكر أحدٌ أخاه، أو حتى يمنحه العزاء ويقول هذا ليس من شأنكم.

شخصيته الهادئة المعتادة قد عكر هدوءها أمور عدة، بقي يعزل نفسه عن الآخرين، يرفض تناول الطعام في المقصف أو العودة مع خوليوس إلى البيت في نهايات الأسبوع.

بدأ يشعر بالألم في صدره من وقت لآخر وأيضاً في ظهره وعلى كتفيه.

كانت أحلام وكوابيس حول الوداع الأخير بينه وبين ألبرتين تعذبه كل ليلة. ونهض من ليلةٍ دامية وجسده متعرق تماماً،كان يحدق في الفراغ أمامه وحول عينيه من السواد ما يكفي ليخيف أي طفل، سحب زجاجة الماء من فوق المنضدة الجانبية للفراش وعب منها الكثير آخذًا أنفاسًا عديدة، وشعر بالألم في صدره من جديد.. تباً ما هذا الألم اللعين؟ أنا لست في حاجة إلى هذا الهراء، أهلي في حاجة إلي، علي أن أكون في تركيز كامل، لن أسمح لنفسي أن أتراخى أو أركن إلى الخوف، هذا ليس من شيمي.

سمع طرقاً على بابه، فقال:

– من هناك؟

– أنا أوغستين، آدومان لا يمكنني أن أنام.

كان هذا صوت أخيه المراهق أوغستينو ما الذي أيقظه الآن:

– تعال هنا وننام معاً.

فتح الباب ودخل أخوه، بدا مفزعاً مثل وجهه البارحة فهو أيضا يمر بكوابيس منذ توفي ألبرت، فمد آدومان يده:

– تعال، لا أريدك أن تظل قلقاً.

اختبأ أخوه في السرير وضمه من خاصرته ثم نام.

بقي حينها يفكر في ظلام غرفته، إخوته منذ حضروا الجنازة أصبحوا يتمسكون به بشدة، أخواته البنات صرن يتصلن به عدة مرات في العمل، أمه تحاول جهدها كي تضبطهم، ولكنهم بعد فقدانهم أخاهم الكبير المُربي فهم بطريقة ما يتمسكون به كأبٍ غالٍ ونفيس لهم.

كان هذا يعذب آدومان ولكنه لم يعترف حتى لنفسه بذلك.

غفى من جديد ولكن الكوابيس المظلمة ظلت تفزع راحته طوال الليل.

الفصل الثامن

شعـــور جديـد

كان في الصباح الباكر يسير في ممرات المؤسســة متجهــاً إلى مكتب السيد خوليوس، يرفع تلك التقطيبة الغاضبة مــن العــالم، ثم تذكر أنه لم يحصل على قهوة الصباح، فقرر أن يمــر علــى المقهــى المركزي وتباً إن كان كارل هو من يعمل هناك الآن، إنه حتى لا يطيق سيرته، ولم يعرف بعد هل هو طبيب مثلاً أو تقني روحي، رباه كــم أكرهه، ثم لاحظ أنه بات يستعمل كلمة أكره كثيرًا هذه الأيام.

وصل إلى المقهى ولكنه وجد شخصًا آخر يقف خلف المشرب هناك، لفت نظره على الفور، فحوله هالة من السواد والبؤس وبطريقة ما ناسبت حالته النفسية حالة آدومان الآن، فقال له:

obeikandl.com

– بونجوغ يا هذا؟ أين كارل؟

رفع ذو العينين الكبيرتين عينيه وكانتا خضراوين ثم قال بصوت بائس مثله خشنٌ وحاد:

– لديه عمل في المركز الطبي.

كان صوت لا يحمل أي نوع من الانفعال، وكأنه آلي.

مط آدومان شفتيه وقال:

– طبيب ويعمل في مقهى لا أفهم هذه النرجسية، لا بد أن لديه الكثير من الوقت ليضيعه في تحضير المشروبات.

همس الشاب ببساطة:

– إن المقهى ملكه ولهذا فهو يأتي هنا ليشرف عليه من وقتٍ للآخر.

أثار هذا الأمر حفيظة آدومان بشدة، لم يكن من النوع الحسود ولكنه بطريقة ما يغضب من الأشخاص على شاكلة كارل، فقال ببرود:

– لا أفهم كيف يكون آسيويًا ويكون اسمه كارل.

أجاب الموظف الهادئ:

– لأنه نصف بارونزي أيضاً، ربما لهذا السبب اسمه كارل تاداشي.

زفر آدومان وها هي معلومات تغيظ لا فائدة منها:

– أريد كابتشينو بدون سكر ولنر إلى أين سيمضي هذا النهار.

بدأ الشاب ذو الشعر الأسود بتحضير المشروب وتسنى لآدومان أن يلاحظ لونه الأبيض الملوح بسمرة الشمس مما يدل على أنه كان يقضي الوقت في الخارج كثيراً، بدنه الممشوق لا بد أنه رياضي، وأيضاً عيناه شبه الجاحظتين، يلفه بؤس من نوع مميز وكأنه كان يعيش في حزن لمدة طويلة حتى اعتاد الحزن والحزن اعتاده.

شعره يربطه في ذيل حصان وبعض الخصلات فالتة هنا وهناك، سأله بينما يدفع ما يستحق:

– ما اسمك يا هذا؟

أعطاه الشاب القهوة وقال ببساطة:

– ماكفلر.

وأشار إلى بطاقة الاسم، فقال آدومان:

– أنت فيتالي.

– نعم.. كيف عرفت؟

– إن لكنتك واضحة جداً. حسناً شكرا لك.

وكاد يتحرك لولا أن الشاب أمسك بيده وقال:

أنت آدومان السكريتر الخاص بالسيد خوليوس الآنكا صحيح؟

– نعم، فيما سؤالك؟

قال ماكفلر على الفور بدون تردد:

– أريد أن أصبح صديقك.

حدق به آدومان فوق هذا كله، غريب الأطوار فسخر منه ثم أشاح وغادر مجيبًا:

– ليس لدي وقت لهراء مثل الصداقة.

بدت على الشاب الخيبة، وهمس بصوت مسموع:

– حسناً، سنحاول من جديد.

وعاد للعمل.

هز آدومان رأسه في تهكم ثم غادر، كان الآن يصنف الملفات بينما خوليوس يتبادل حديثاً خافتًا مع فير الفيتالي عبر الهاتف، يمكن لآدومان أن يسمع بعض ضحكات فير الهازئة من كل شيء وتذكر أنه تقني متمرس ومشهور في كل مكان بقدراته غير العادية.

تذكر بشكلٍ تلقائي تجربته مع خوليوس حينما دخل إلى عقله، وحينما فعل تذكر منظره في الداخل وكيف يبدو شكله، لم كنت في غرفة طبية أجلس فوق أخي وأنا مثبت إليه بعروق، كنت طفلاً باكيًا،

لم بدوت بتلك الطريقة المحزنة؟! إنني أرفض تمامًا العـــودة إلى ذلـــك المكان المقرف، لن أسمح لأحد أن يتطفل على خصوصيتي.

كان خوليوس يمنحه نظرات صامتة دون أن يجبره على العـــودة إلى سيرته الأولى، فقد تغير آدومان كثيراً، صار قليل الصبر، قاسيًا في التعامل مع الآخرين، وحتى في المهام الموكلة إليهم بات خوليـــوس لا يستعمله إلا في أضيق المجالات، فقد وصل آدومان مرحلة مزرية تماماً. والآن في طريقه إلى خارج المؤسسة وجد ماكفلر ينتظره عند المدخل وهو يحمل كيساً، مر بالقرب منه ونهره بغضب:

– إياك حتى أن تنطق بحرف واحد.

قال ماك وهو يرافقه:

– لن أنطق فقط تعال معي سوف نأكل شيئًا ما، ألست جائعًـــا على الأقل؟

– ربما، لم أعد أشعر بالجوع منذ مدة طويلة.

قال ماكفلر:

– إذن فلتكن هذه دعوتي لك، هيا بنا.

سار معه آدومان إلى المطعم القريب من الجهة المقابلة للمؤسسة ومن الأعلى في الدور الرابع كان خوليوس يراقبهما يسيران معاً بينما يدخن في هدوء. في المطعم الحميم والهادئ، كان آدومان يحـــدق في

طبق الحساء الموضوع أمامه مع بعض قطع المخبوزات، بينما يجلس مقابله الشاب ماكفلر وهو يلتهم شطيرة من اللحم المبرد:

– لم لا تأكل؟

– لا أشعر أنني جائع.

– لقد خسرت وزناً رهيباً يا رجل.

حدجه آدومان بنظرة متسائلة وقال:

– حقا! ومنذ متى وأنت تعمل في المؤسسة لتعرفني؟

ماكفلر ببساطة:

– منذ سنوات طويلة، في الواقع منذ كنت في الثامنة عشرة، إلا أنك لم تلاحظني، عموماً لست متفاجئًا فلا أحد يلاحظني على أية حال.

حدق به آدومان مندهشاً، والشاب يكمل التهام شطيرته بكل رضى، وكأن ما قاله ليس محزناً.

حقا؟ أنا لا أتذكرك أنا أعمل هنا منذ ٣ سنوات ولكنني لم أرك حقيقة.

شرب ماكفلر بعض الصودا وقال بصوت لا حماس أو روح فيه:

– نعم أعلم، كثيرون لا يفعلون، إن مهامي تقتضي مني التخفي الكامل، وأنا بارع في هذا لدرجة أن الكثيرين في المؤسسة لا يتذكرونني، هاهاهاه مضحك.

شعر آدومان أنه يجلس أمام شخصٍ مميز وإن أبدى غير ذلك، فقال:

– إن هذا رائع وليس مضحكًا، لا بد أنك تعمل في قسم التحريات الخاصة، لديهم فريقٌ مميزٌ هناك لكني لا أعرفهم بالأسماء.

– نعم أنا من هناك بالفعل، شكراً لك، كُل شيئاً، إن هذا حساء جيد.

شعر آدومان أنه يود تذوق الحساء فأخذ الملعقة وبدأ في الأكل، بينما ماكفلر كان من النوع الصامت الذي لا يقول الكثير ولكنه حينما يفعل فإنه لا يصمت.

حديثهما اقتصر دومًا على أمور المؤسسة وكاد آدومان يقسم أن هذا الشاب حضر جنازة أخيه فهو بطريقة ما يتذكر وجهه لكنهما لم يتحدثا بشكلٍ شخصي، وحقيقة أنه لا يجلب مسألة وفاة أخيه في حديثهما أراحه كثيراً. اعتادا أن يلتقيا في موعد الغداء والتحدث عن كل شيء عن نفسيهما، فماكفلر كان خصوصيًا بطبعه وآدومان لا يريد أن يقترب أحد من مشاعره أو قلبه.

* * *

تناقصت الأوقات التي يقضيها مع خوليوس بشكلٍ مطرد، ولاحظ آدومان أن خوليوس لا يضغط عليه ألبتة في أي شيء، يتركه على هواه كثيراً حتى ظنه بدأ يفكر في تغيره، صار يفكر كيف سيرمم علاقته بخوليوس التي أفسدها ما حصل قبل مدة من الآن، إنه عاجز عن العودة إلى حالته القديمة فقد ضل الطريق.

كان يجلس مع ماكفلر على طرف سورٍ بالقرب من النهر وقال وعيناه تحدقان في الغروب الجميل:

– هل تظن أنهم سوف يستبدلونني في مكتب السيد خوليوس؟ بت لا أخرج معه في مهام خاصة منذ مدة، والآن أضحى يترك لي التصنيف والعمل في المكتب وحسب لا بد أنني خيبت أمله كثيراً.

قال ماكفلر:

– لا أظن ذلك، أنت فقط تحتاج إلى نفض نفسك وحينما تعود لذاتك، سيكون كل شيء على ما يرام.

كان هذا حوارًا جديدًا يسمعه آدومان للمرة الأولى، فهو لا يتحدث مع هذا الشاب عن أي شيء شخصي يدور في خلده، فكيف يفهمه إلى هذا الحد، فقال:

– عم تتحدث ماكفلر؟ أفصح.

– أنت تقول إنك لم تعد مثالياً في العمل مثل الماضي، إذن ما الذي تغير؟

– لا أعلم لم أعد أجد الأمر ممتعاً مثل الماضي، بات الولوج إلى عقول الآخرين يرعبني حتى العظام، وكلما رأيت أكثر عن الطرق التي يتخذها الناس في التعامل مع مشاكلهم النفسية؛ أصبت بالتقزز والقرف من نفسي ومن الآخرين، أظن أن أشخاصاً سيكونون مفيدين أكثر في العمل على مثل هذه الوظيفة، ثمة ما مات في داخلي فأعطبني.

مازحه ماكفلر:

– هل تستطيع أن تترك السيد خوليوس لأحدٍ آخر غيرك.

تجمد الكوب في يد آدومان فهو لم يفكر في هذا ألبتة، همس بدون تفكير:

– كلا إنني أنا سكرتيره الوحيد وأنا وحدي أفهم شخصيته المعقدة، إن هذا عملي وقدري.

– إن كان هذا هو الحال، فعليك أن تحاول جاهداً أن ترتب من وضعك معه، أياً كان السبب الذي يجعلك تجزم بحقيقة أنه سيخرجك من العمل، عليك بالغائه والتحدث إليه كي توضح له الأمور.

حدق به آدومان ملياً، إنه شاب هادئ وكيس، حتى إن بدا عليه عدم الاهتمام أو الحماس لكنه يركز جيداً في من حوله، هذا مثير للاهتمام.

قال بصوتٍ جاد:

– أنت محق، لم أفكر في هذا الأمر، أشكرك كثيراً.

هز ماكفلر كتفيه ولم يحر قولاً.

اعتاد آدومان غرابة أطوار هذا الشاب وكان يمر بشعورٍ جديد أن يرافق شخصًا من عمره وأن يتبادل معه حديثًا من هذا النوع على الإطلاق.

لطالما صاحب الأكبر سناً، شخوصًا مثل أخيه والمسيو فيكتور، السيد خوليوس، هذه مرته الأولى في الشعور بهذا الإحساس الجديد، إنه نوعا ما....

حدق به وهو يشرب الصودا من الماصة ويمنح اللامبالاة للعالم من حوله بعينين خاليتين من الانفعال، هل هذا هو شعور الصديق؟

سأل ليختبره:

– فيما التصاقك بي يا رجل؟ ألم تملني؟ إنني لست ممتعاً، على الأقل ليس كما كنت يوماً ما.

لم يفكر ماكفلر وهو يجيب:

– ألم أطلب أن أصبح صديقك؟ أنا لم أطلب ذلك لأنك ممتع أو ممل، لقد طلبت صداقتك لأنك تعجبني وحسب بدون تفاصيل.

وعاد للتحديق في الغروب، ليس في حاجة ليختبر شخصاً مثل ماكفلر إنه صريح، واضح، قال له وهو يستعد للمغادرة:

– سوف أخبره إذن غداً عن مخاوفي هذه، وسوف نرى.

– بالتوفيق.

كان صباح اليوم التالي مزدحما جداً، فقد كان خوليوس ينتقل من مكتب لآخر في بارونزا بصحبة آدومان وهما يحملان الحقيبة الخاصة بالعمل، في سيارة كان يقودها آدومان بينما خوليوس يدقق في المهمة القادمة، أمامه في الملف، قال آدومان وقد حسم أمره:

– سيدي هل أستطيع سؤالك في أمرٍ ما؟

– تفضل آدومان، تعرف أنه يمكنك فعل ذلك فلا تستأذن.

تنحنح قليلاً ثم قال:

– سيدي، هل تعتزم إبدالي، لأنني لم أعد حاداً في العمل مثل السابق؟

رفع خوليوس عينيه الناعستين عن الورق، وخفض عويناته ذات الإطار الذهبي قائلاً:

– هل أنت جاد آدومان؟ من أين أتيت بهذه الفكرة؟

– إن هذا الأمر يراودني منذ مدة الآن، فقد أصبحت لا تأخذني في جولاتك العقلية واقتصر عملي على المكتب وحسب. حتى رحلتك الأخيرة إلى فيتاليا كانت بمفردك، مع أنني أعلم أنك ستقوم بالعمل

الخاص مع عميل جديد هناك، هل وجدت بديلاً لي فلم تعد تحتاجني؟

التزم خوليوس صمتاً لبرهة، كان آدومان يراقب وجه خوليوس من الجانب، ثم سمعه يقول بهدوء:

– آدومان، هل أنت مستعد لسماع ما لدي أم أنك ستغضب على الفور؟

كان هذا حديثاً لم يتوقع آدومان أن يصلا إليه، ولكنه قرر أن يسمعه على أية حال.

فأجاب:

– نعم سيدي، سوف أستمع إليك تفضل.

تنهد خوليوس ثم قال بصوت جاد:

– حسناً ليس العيب فيك آدومان، في الحقيقة أنا رفضت أخذك إلى أي عملٍ خاص بسبب عدم قدرتك على التركيز، في عدة مناسبات تتوه عن الغرض الذي من أجله ندخل العقل، وليس هذا فحسب بل إن مشاكلك الخاصة، تؤثر كثيراً على حكمك في الأمور، إن المرء حينما لا يصفي عقله من الغضب والخيبة التي يمر بها، فإن حكمه على الأشياء لا يكون عادة في مكانه الصحيح، وعليه دوماً أن يتخذ الإجراء المناسب كي يتحرر من كل تلك الأحاسيس التي تجره إلى الأسفل، العمل بعقلٍ مُغضَب لهو ضياع من حيث لا تعلم.

كان الهواء عليلاً وهما يقطعان الضاحية كي يصلا إلى مكتب صغير على طرفها، الشمس تبدو لامعة بالفرح والطيور تغرد من حولهم، ريف بارونزا هو الأجمل في هذا الوقت من العام، ولكن ما يسمعه الآن، يجبره على العودة إلى الكثير من الماضي وهو يرفض الفكرة، إن الفكرة بالنسبة إليه غير مطروحة لنقاش، أما وقد وصل الأمر إلى مستوى أدائه في العمل فإن هذا يشعره بالخيبة من نفسه.

أكمل خوليوس وقد لاحظ ملامح آدومان المنصتة في خشوع:

– لقد تركتك كي تلعق جراحك وحدك في صمت، ولم أدخل في عقلك من فضول زائد عن الحاجة، وأن كنت أعتذر أنني فعلت دون آخذ الإذن منك، فقد أعماني القلق عن استشارتك في الأمر.

التفت آدومان إلى خوليوس ولم يصدق أنه أعتذر منه بل إنه لم يتخيل أنه قلق عليه إلى هذا الحد، بطريقة ما كان هذا مثل ثلج يغسل قلبه وينظفه فهمس بصوت خافت:

– إن هذا يعني لي الكثير سيدي، أشكرك.

مد خوليوس يده وربت على كتف آدومان، ثم رفع الورق من جديد وأكمل:

– إن كنت تريد أن تعود إلى ما كنت عليه فلديك واحد من اثنين، إما أن نحل الأمر بأنفسنا من خلال جولة في العقل، وإما أن

تصارح أحد رفاقك بما يعتمل معك، لكن أن تظل صامتاً هكذا وتطوي على قلبك المتعب المحزون بطبقة غير حقيقية من الاستقرار فهذا ما لن أسمح لك به، هل تفهمني؟ اختر لنفسك ما تريده.

مر وقت قبل أن يجيب آدومان بجدية:

– شكراً لك سيدي على مصارحتك لي، سوف أتحدث مع صديقي، إذ لم أرتح بعد لفكرة أن تزور عقلي، سيدي إن هذا محرج، حيث إنني لا أعلم ما الذي يوجد هناك.

تبسم خوليوس لقاء الجملة الأخيرة وقال بصوت خافت متذكرًا بعض ما رأى:

– لا يوجد هنالك إلا كل خير.

لم يسمع آدومان ذلك وانطلقا إلى وجهتما.

* * *

بعد ذلك اليوم الطويل اتفق آدومان مع ماكفلر أن يلتقيه بعد العمل عند المتنزه القريب من المؤسسة، مخبراً إياه أنه يريد أن يصارحه في أمر ما.

وفي الموعد المحدد، كان ماكفلر يقف في المكان منتظراً وفي يده كوبا قهوة جديدة مع بعض الحلوى المفضلة لكليهما، كان ماكفلر يعرف الكثير عن مفضلات آدومان من مأكل ومشرب مع الوقت الطويل الذي كانا يقضيانه يومياً في المطعم الصغير المقابل للمؤسسة، يجلس على مقعد خشبي يضيء فوقه مصباح المتنزه منتظراً، وقد غابت الشمس منذ مدة.

رأى ماكفلر آدومان يأتي من بعيد وهو يجري في محاولة لتعويض الوقت الضائع، تبسم حالما رآه وشع قلبه بالسرور، إن آدومان لا يعرف ماذا يعينه له أن يهتم به.

وصل آدومان لاهثاً فأشار ماكفلر بالمنديل:

– تفضل وخذ قسطاً من الراحة، فيم تأخرك؟

– رباه إن خوليوس يطلب الكثير في الساعة الأخيرة من الدوام ويتخيل أنه بوسعي أن أفعل كل هذا في لمح البصر.

ضحك ماكفلر وأجاب:

– ربما يعتبرك رجلا خارقاً مثلاً؟

– مضحك ماكفلر، هات القهوة.

أشار ماكفلر بالصودا وهو يعب منها الكثير:

– سأنهي هذا أولا.

تأمله آدومان ملياً قبل أن يقول:

– إنني في الواقع لا أفهم سبب شربك الكثير من الصودا معظم الوقت، ألا تخشى على صحتك.

أشار ماكفلر لكوب القهوة الورقي بين أصابع آدومان الطويلة:

– وماذا عن إدمانكما القهوة أنت والسيد خوليوس، لا أحد يستهلكها مثلكما، فلا تجلس هنا محاضراً بشأن الصودا البريئة.

ضحكا معاً، ثم مرت لحظات من الصمت، بعدها قال آدومان بصوت ثابت:

– لقد خسرت شخصاً عزيزاً عليَّ قبل سنة، أنا لم أستطع تخطي خسارتي له على عدة أصعدة.

رفع ماكفلر رأسه وصار يحدق في وجه آدومان الجانبي، وشعر بعظم الأمر الذي سيتحدث فيه، حتى إنه لم يتصوره يشاركه شيئًا عن وفاة أخيه.

بقي ينتظره أن يستهل الحديث سمع صوت آدومان يقول بطريقة حزينة:

– كنت أخًا غير شقيق في تلك العائلة، ولأنني كذلك، كنت دوماً أبحث عن الطريقة التي أثبت فيها أنهم لم يخطئوا حينما اختاروني ابناً لهم، فتبعت أخي الكبير كمثال لي في الحياة،كان شاباً صالحاً علمني الكثير، أنجبت بعدي أمي العديد، فبطريقة ما وجدت نفسي في عائلة كبيرة جميلة متنوعة.

تبسم ماكفلر لما يسمع:

– رباه إن الفكرة بحد ذاتها مثيرة للحماس.

أسعد آدومان تفاعل ماكفلر معه وأكمل:

– كنا نعيش الفقر بكل معانيه، فالطعام نجلبه باليوم، والماء كذلك، أمي تعمل وأخي الصغير بدأ يكبر وعمل من وقتٍ مبكر جداً، الآن بدأت أظن أن هذا سببٌ كاف لجعله يقترف ما اقترفه لاحقاً، لا أعلم ربما شعر بالحاجة لأن يتخلص من ضغط الحياة الملقاة على عاتقيه، عندما توفي أبي في حادثٍ على الطريق، التقط بعدها أخي نفس الوظفية في المزرعة ذاتها وصار يعمل في أصغر المهام حتى تقلد منصباً كبيرًا هامًا فيها وهكذا أصبحنا نعيش في عيشة مستورة، تغيرت بنا الحال، حينما كبرت أنا أخذت أعمل مع أخي في ذات المكان، ولأنني المتخرج الوحيد في الجامعة، فقد شغلت منصب سكرتير على الفور، حقق هذا العمل لنا حالة مادية ممتازة جداً.

استمر بنا الحال لمدة خمس سنوات، وصلت فيها إلى خبرة كبيرة في العمل والكثير من التفاصيل الهامة التي لا يتعلمها المرء إلا إذا التزم بعملٍ حقيقي.

ثم قضم قطعة من الحلوى كان ماكفلر سعيداً جداً وإن لم يكن من النوع الذي تتبدل على وجهه الانفعالات ألبتة، وبدا أنه بارد ولكنه في الداخل كان يطير من السعادة، إذ وجد فيه آدومان موضعًا للثقة فقال:

– إنني نوعاً ما أحسدك على هذه الحياة، فأنا وحيد والدي وقد تطلقا بعد إنجابي، رباني والدي وعشت معه حياتي كلها، إن القسوة البحتة هي عنوان حياتي معه، أن يكون لديك إخوة فتتعاونوا على الأشياء لهو شيء رائع يا صاح!

لم يتوقع آدومان أن الآخرين قد يرون هذه الحياة نوعًا من الرفاهية:

– هل أنت وحيد؟

– نعم.

– وليس لديك إخوة مثلا من أمك أو أبيك؟

– كلا، إن أياً منهما لم يتزوج بعدها، أمي محامية عظيمة وأبي يعمل في ذات المؤسسة، عملت معه كتبعية وليس اختيار ولكنني بارع

فيه، أصبحت أحب نوعية عملي مع مرور السنوات.

أدهشت آدومان حياة الشاب، الذي ظنه واحدا من ذينك الشبان المرتاحين تماماً، وقد توظفوا فقط لأن شهاداتهم تفي بالغرض، فهو يبدو لماحًا بالرغم من بروده.

قال آدومان:

– هل أستطيع أن أسال من هو والدك؟

ماكفلر ببساطة:

– إنه في قسم التحقيقات وهو يعمل في فيتاليا، لكنه أرسلني هنا لأنه يريدني أن أصبح رجلاً على حد تعبيره.

ثم ألحق ذلك بضحكة ساخرة، فكر آدومان، أنه رجل بحق ولا يعيبه شيء بل إنه مجد:

– وما قصة العمل في المقهى؟

– ذلك لتزجية وقت الإجازات الأسبوعية، أبي يرفض عودتي لفيتاليا في هذا الوقت ويمنحني زيارة مرة في الشهر، ولهذا أكون متفرغًا فاعمل في أي شيء داخل المؤسسة لتزجية الوقت.

بمعنى آخر فهم آدومان أنه بلا صحبة من أي نوع على الإطلاق، وحيد تماماً كما يبدو.

شعر للحظة بأنه جاحدٌ لنعماء الله عليه، فلديه عائلة تحبه وترجو عودته كل يوم من العمل كي يتحدثوا معه ويخبروه تفاصيل يـــومهم، لديه أم لم تلده لكنها تخشى عليه من غبار الهواء، هي أروع من أي أمٍ وجدت على الأرض على الإطلاق، ثم تذكر رئيسه في العمل المهـــتم لشأنه، فيقلق عليه ويعامله مثل والدٍ له، أن يطلب منه ماكفلر قبـــل أشهر من الآن أن يصبح صديقاً له، ذلك أقل ما يمكن أن يفعله بعـــد العيش بهذه الحالة المستوحدة منذ أشهر وربما لسنوات.

– كم تبلغ من العمر ماكفلر؟ إنني حتى لم أعرف ذلك.

– أنا في الثامنة والعشرين.

ضحك آدومان وصافحه بدون تفكير:

– أنا أيضاً هاهاه، لقد اقتربنا من عمر الرجال الناضجين، هذا مختلف.

ضحك ماكفلر وأجاب:

– نعم لم أفكر بالأمر ألبتة.

تنهد آدومان:

– لقد كنت أتمنى أن أبلغ الثلاثين بالقرب من أخي، فقد بلغها وكان راشداً بما يكفي ليعرف أن فعله لم يكن عين الصواب، فقد بدأ

يسرق من المزرعة ويخفي الأموال لنفسه، وأنا في نار وجحيم، فكنت أفكر هل أفضح أمره وأقوم بعملي أم أخفي الأمر لأنه أخي الكبير، اتخذت القرار الخطأ بإخفاء الأمر، ليكتشف المالك في نهاية المطاف سرقات أخي التي انتهت بنهب قسم كبير من المال المتعهد إلينا، والهرب به حيث لا يعلم أحد.

تغيرت نظرة ماكفلر وبدا عليه الحزن، أكمل آدومان:

– لقد دمرني هذا كثيراً، ولكنني لم أعترف لأحد بما شعرت به، بل وشددت على نفسي كي أكون رب الأسرة حينها، فقد طردني صاحب المزرعة من العمل لعدم ثقته بي، وقد خسرت عن قول الحقيقة بشأن أخي، ولأجل هذا كان علي أن أبحث عن عملٍ جديد، مع أناس جدد لا أعرفهم، ومع قلة المصادر المالية بدأ يظهر الشح في منزلنا، وقلة الحال، كدت أجن من الحمل والعبء العظيم والكل يعتمد علي.

– أنا وأمي اتفقنا أن لا نشعر الآخرين، إنه لم يعد هنالك دخل مادي بين أيدينا، حتى مرت هذه السحابة بموافقة السيد خوليوس على أن أعمل لديه في المؤسسة وكانت هذه بداية العودة إلى السلام والرخاء.

كان ماكفلر يصغ السمع وعيناه لا تفارقان وجه صديقه، أكمل آدومان:

– إنني أعمل بجدية كل يوم وفي كل لحظة تمر أتساءل أين هو ألبرتين؟ لقد ترك قلوباً محطمة خلفه وأنا أتظاهر في كل هذا بأنني بخير ولكني أقاسمك حقيقتي، لم أكن كذلك، إن دموعي تهل على وجهي إن تحدث أي شخص عن الإخوة وما إلى ذلك.

كان يمسح بعض الدموع الخائنة، ربت ماكفلر على كتفه وهمس له:

– هون عليك يا رجل اعتبرني أخًا لك.

شعر آدومان بالدفء يغزو قلبه مما دفعه للتفكير بأن صديقه ليس شاباً بارداً كما ظن، كلا إنه فقط لم يعبر قط عن مشاعره أمام أحد والسبب بسيط جداً، لقد تم زج مشاعره في صندوق ما، ثم دفن تحت الأرض وحثي عليها التراب ليعيش بدون مشاعر كما علمه أبوه فيقسو ويصبح جلداً، إن هذا محزن جداً.

أجابه آدومان:

– شكراً لك، إن هذا حتماً سيكون شرفاً لي.

ثم استطرد:

– بعدها اعتدت البقاء في حالة مثل الآلات أعمل وآكل وأعيش فقط لأن الجميع يريدون ذلك، حتى وصلت لباب مسدود وهو ما قصم ظهري، كان ذلك عودة أخي في ليلة ما وموته في الليلة ذاتها.

التفت إليه ماكفلر متفاجئًا من هذه الأقدار الغريبة.

– كان موته أمراً لم أكن مستعداً له ألبتة، فقد قضيتُ الأيام السابقة متمنياً عودته في أي وقت، ولكن أن يغيبه الموت في لحظة لقياه بعد سنوات من الغياب فهذا ما لم أكن مستعداً له، فقد كان في العيادة وقد خسر وزناً رهيباً، بدا لي مثل شيطان استيقظ من رقدة طويلة، كان كأنه خيال لأخي الذي عرفته يوماً، كيف لكل هذا ألا يعذبني، في النهاية أنا مجرد شخص واحد ليس بيدي أن أصلح كل الأمور، إنني ضعيف مثل الآخرين.

صمت صمتة وكان صوته يغص بالألم وإن بدا وجهه هادئًا بطريقة ما، كانت هذه مرته الأولى التي يصرح فيها بحقيقة ما يجرحه ويدمره بهدوء من الداخل.

همس له ماكفلر:

– هل عتبت عليه، هل أخبرته أن هروبه من البيت والعائلة أغضبك وعذبك؟

– كلا كنت مثل أخرس، لقد عاملته بالحسنى لأنه كان مسجى على فراشٍ تأكد لي أنه فراش موته، ذلك جعلني أتردد بشكل رهيب على الاعتراض بصوت مسموع والعتب كما يجب، لكنه مات تاركاً إياي في عذابي ذلك، وكم تميزت من الحنق والألم لقد استطاع تركنا،

أعرف أنه القدر ولكن ذلك الظلم كأنه من حقه وفوق هذا تخيل لقد طلب الصفح والمغفرة كيف له أن يتجرأ؟ فقط أخبرني.

– أظنه كان يعرف مدى كرم أخلاقك آدومان، كان يعلم أنك سوف تمنحه فرصة وأخرى، كونه يعرف طريقة تفكيرك وأي رجل حكيم كنته على الدوام.

حدق آدومان في وجه ماكفلر وهو يقول ذلك مقتنعاً، شعر بالدم يصعد إلى وجهه، آلمه صدره في ذات المكان من جديد، وهمس بصوت ما:

– هل تظنه فكر بي على أنني شخص حكيم؟

– أنا متأكد من ذلك.

لم يكن آدومان يرى نفسه حكيماً حتى وإن أقسم له ماكفلر على ذلك، هو يعتقد تمام الاعتقاد أنه يحتاج إلى الكثير حتى يصل الحد الذي وصل إليه السيد خوليوس.

فقال:

– لا أظنني حكيمًا ولكنني آخذ الأمور بروية على الدوام، لكن في حادث وفاة أخي، قد ضللت، من ذلك الحين يا عزيزي وأنا لم أعد أنا، لقد مات شيء في داخلي وأرى أخي يموت ويتركنا. وكأنه اختار أن يهرب هروبه الأبدي، أعلم أن هذا كان قدره وربما عقابه، لكن... رباااه كم يغيظني التفكير في الأمر حتى.

مرت لحظات من الصمت، احترم ماكفلر الحالة النفسية التي صار عليها صديقه الآن بوصوله إلى هذه النقطة من الحديث، فقال له:

– أخبرني كيف ترى أنك فقدت جزءاً منك بسبب موته؟

تنهد آدومان وشعر بالدموع العميقة تحتشد بين جفنيه الحادين، همس بصوت خافت بدأ يظهر فيه تهدج صوته الدافئ:

– بطريقة ما رميت بالأمر كله خلف ظهري وتصرفت وكأن شيئًا لم يحدث، أبقيت كل ذلك الحزن في داخلي وطالبت الجميع ألا يحدثوني قط في أمره، بل مع الوقت لم أعد أتقبل العزاء فيه، رغبة مني بعدم التصديق بتلك الحقيقة، أصبح الجميع يتحاشون الحديث إليَّ، وحتى تبادل الأخبار وبالأخص الشخص الوحيد الذي أتطلع إليه وكأنه شمس النهار التي لا تغيب السيد خوليوس، لا أعلم لم صرت أعامله بطريقة غير لائقة، إنني حتى بلا أخلاق تذكر، والعجيب في الأمر، حقيقة أنه لا يعترض ألبتة على أي شيء يصدر مني، أعلم تمام العلم أنني لم أتعامل كما يجب مع موت أخي، أحتاج للحديث في الأمر كله، لكنني من شدة كربي يا ماكفلر وصلت إلى محطة اللا عودة، أردت الصمت وشعرت أنني بت عاري المشاعر أمام الآخرين، وبشكل خاص أمام السيد خوليوس، ففي الوقت الذي كنت أريد أن أبدو فيه في أقوى حالاتي، كنت في أضعفها، وفي الوقت الذي كنت أرجو من نفسي أن تصمد هو ذات الوقت الذي خسرت فيه قدراتي

كلها، ومنها أن أتصرف كسكرتير محنك.. فسدت علاقتي بمن حولي، حتى إن إخوتي الصغار صاروا يتحاشون الحديث معي خشية بطشي.. هل تتخيل..؟

كانت الدموع الحارقة تسيل على خدين عاليين وقويين، بينما ماكفلر يتأثر من أعماقه وإن بدا وجهه هادئاً:

– لا أحد خارق القوى يا رجل، من الذي علمك هذا الهراء، إن للأبطال لحظات ضعف تكون هي سبب في لحظات القوة التي تعقبها، ليس عليك أن تكون دوماً من ينهض ليصلح الحطام الذي تخلفه العواصف.

مسح آدومان بعض الدموع في كمه وسمع صديقه يقول:

– ليس من الحكمة أن تعذب روحك بالبقاء قوياً طوال الوقت، إنك حينما تضعف قليلاً تمنح الآخرين الذين يحبونك الفرصة ليعتنوا بك كما كنت تعتني بهم.

هذا الماكفلر رائع من حيث لا يعلم.

رأى أمامه قطعة حلوى ثانية كان ماكفلر دفعها إليه فضحك، أخذها منه، همس صديقه بصوت أكثر ابتهاجاً:

– آدومان إن اللحظة التي تسقط فيها على ركبتيك وقد أنهكتك الأحمال، هي اللحظة التي يجب فيها أن تطلب المساعدة، وهو

ذات الوقت الذي يجب عليك فيه أن ترفع يديك للسماء فأنت في وضع مثالي للصلاة.

كانت تلك كلمات بالغة الدفء والعطف جعلت من آدومان يرتجف في داخله وهو يعترف:

– لا أحب أن يرى الآخرون ضعفي ويظنون أنني غير قادر على الاهتمام بنفسي وبعائلتي، أخشى أن يحكم علي بأنني فاشل.

تنهد ماكفلر ونهض ليركل حجراً كان قريبًا منهما وقال بصوت ما:

– أنت لم تجرب أن تكبر على كلمة فاشل، فتتعَت بها في غدو وعشي، بل وأن تُتهم ليلا ونهارًا بالتقصير وبقلة الأهمية والجدوى، وأن يعلق على فشل علاقة شخصين وجودك في هذه الحياة، يا عزيزي دعني أخبرك بشيء ما، إن الفاشلين هم الذين يظنون أنك فاشل وهم الذين يعاملونك كعالة، أنت في هذا الوقت القصير أخبرتني عن روعتك، وعن كفاحك الطويل منذ سنوات عمرك الأولى وقد صنعت من نفسك رجلاً شرساً قوياً وقادراً على قهر الصعاب بنفسك ووحدك، إن أقل القليل هو أن تنهار يا رجل على الأقل بعد كل هذا الوقت فأنت لست بآلة كما تعلم.

توقف ماكفلر أمامه ثم جثا على ركبتيه واضعاً يديه على ركبتي آدومان وهمس بصوت جاد وعيناه الخضروان تبرقان في ذلك الليل:

– دع الآخرين يهتمون بك، إنهم يريدون فعل ذلك ولكنك تمنعهم بهذا الوجه الغاضب أبداً.

شعر آدومان بأن الرؤية المعتمة تبددت، كأن ضوءاً في صدره شع الآن وثمة دفء يملأ روحه، نهض ماكفلر بعد أن ابتسم ليجلس بالقرب منه هامساً وقد ظهر القلق في صوته:

– أرجو ألا أكون قد تجرأت في الحديث في جوانب ليست من عموم شأني.

اعتدل آدومان وقال بصوت جاد وهو يضع يده على كتف صديقه:

– أنت صديقي، يمكنك الحديث معي بالشكل الذي يريحك.

كانت المرة الأولى التي يرى فيها آدومان وجه هذا الشاب يشع بالسرور، انفرجت شفتاه عن ابتسامة كبيرة أظهرت أسنانه المرتبة والطويلة، ومن عينيه الكبيرتين ظهر مدى الفرحة التي يخبئها صدره، لم يعرف آدومان ماذا يعني هذا لماكفلر ولكنه قدر أن علاقته به لا بد وتكون شيئًا هاماً له، فقال بصدق:

– أظن أنني سعيدٌ جداً لأنه أصبح لدي صديق، فهي مرتي الأولى التي أحصل فيها على صديق حقيقي، شكراً لك لأنك فكرت باختياري كصديق لك، إنني ممتن.

خفض ماكفلر عينيه إلى يديه وقال محرجًا وهو يضحك ضحكة عصبية:

– هيا الآن تظهرني وكأني أنقذتك من الخطر، لست إلا شخص عادي ولست مميزًا مثلك، شكراً لقبول صداقتي.

نهض آدومان وقد شعر بالطاقة تشغل تحرك قواه الداخلية:

– نعم لقد فعلت! أنقذتني من خطر نفسي، لن أنسى لك هذا المعروف أبداً.

نهض معه ماكفلر وبدأ ينظف المكان بينما يملأ قلبه سرور لا يظهر على وجهه الهادئ تماما وقال بجديته:

– إن هذا يعني لي الكثير، هيا بنا إذن كي ترتاح، لا بد أن الماما تنتظر، صحيح؟

ضحك آدومان على لكنة ماكفلر الفيتالية المحببة وفكر من سينعت شابًا مهذبا مثله بالفاشل.. يبدو لي شابًا كادحًا بحق.

عاد كل إلى بيته وعلى فراشه ليلتئذٍ قرر أنه اكتفى من العيش في ظلام روحه، سوف يطلب من السيد خوليوس أن يقدم له جلسة لباطن العقل كاملة هذه المرة، وسوف يتقبل أي شيء يقترحه كي يخرج من هذه الحالة التي طالت وأنشبت أظافرها فيه فغيرته، وعذبت الآخرين من حوله.

obeikandl.com

الفصل التاسع

رحلتي مع ذاتي

كان المكتب الخاص بالفارس وسكرتيره قد أوشك على الإظلام، فالشمس تدنو من غمدها والليل في اقتراب، كان آدومان يجلس على الأريكة الخاصة باستقبال الضيوف في مكتبهم، في بزة العمل وهو ينظر إلى السقف بينما قلبه ينبض بالقلق، في المكان ذاته كان يجلس كارل أمامه حقيبة طبية تمتزج بين الجهاز التقني وجهاز ينقل المحاليل عبر أنابيب ما، السيد خوليوس يجلس قبالته وهو يتحدث إلى كارل في همس.

obeikandl.com

يحصل هذا بعد أسبوع من اتخاذ آدومان القرار بالمضي في هذه الخطوة، ولكنه الآن يرتعد بالتوتر، إنه يحمل احترامًا عظيمًا لسيد خوليوس ولكل ما يمثله من نزاهة ونظامية، فإن يراه من الداخل بهذا العري الروحي، أمر لا يسهل عليه تقبله، طمأنه خوليوس بأنه سيكون سريعاً فلن يشعر به بشكل يحرجه ويخجله.

اعترض آدومان أيضًا على كون كارل هو المسؤول عن التجهيز لهذه الجلسة تقنياً، لكن خوليوس اختصر عليه بقوله إنه لا يثق بأحد في هذا الحقل مثل ثقته بكارل، كما أنه الأفضل فيهم جميعًا.

كان هذا سببًا ليجعل آدومان يحجم عن المضي أكثر في اعتراضه، لتكون جلستهم الآن والهواء راكد من حولهم، همس كارل بصوت خافت:

– كل شيء جاهز، مسيو آدومان هل تشعر بالنعاس بعد؟

– نعم أفعل.

– أخبرني حالما تشعر بأنك غير قادر على التحديق أكثر.

شعر آدومان بعينيه تنغلقان وهمس:

– لست قادراً على...

غفى!

حدقا به للحظة ثم قال خوليوس:

– حسنا، أترك لك أمر متابعة الجلسة حيوياً، سأحاول أن أكون سريعاً، لا يدخلن أحد علينا يا بني.

– حسنا سيدي.

* * *

كان آدومان يقف في ممر طويل، كله من الزجاج لاحظ ملابسه فقد كان في زي أبيض كما رآه آنفا، يقف بلا أحذية لديه أجنحة الوطواط لكنه كان بشريًا، تأمل وضعه وبرودة المكان من حوله، شعر بأنه يجب أن يستمر في المضي قدماً بالرغم من ضيق المساحات من جانبيه، سار وسار حتى لاحظ وجود شقوق في الجدران الزجاجية وأن وجهاً ما يظهر له كلما مر من شقٍ منها.

فتوقف ليتحرى هذا الشخص، وما إن فعل حتى رأى وجه ماكفلر من خلف الشق، كان بالكاد باديًا له، همس بصوت خافت:

– ماك! ماذا تفعل هنا؟

تكلم ماكفلر ولكن آدومان لم يسمعه، لم يسمع شيئاً، قرب أذنه من الشق ليسمعه يهمس:

– أنا هنا منذ وقتٍ طويل، هلا أعرتني اهتمامك.

فوجئ آدومان أن يكون هذا الشخص يتحرك خلف الشقوق، لم هو محبوس هناك، فمد يده ليخرجه لكن طرفي الشق كانا حادين مثل نصل سكين فجرح يده بشكل عميق مما اضطره أن يخرجها ليرى الدماء تسيل منها بغزارة.

شعر بالدموع تغلبه ولم يفهم لها سبباً لكنه رأى يد ماكفلر تمر بسهولة من بين الشقوق وهو يقدم له منديلاً، لم يسمع ما قاله ولكنه لاحظ أن المنديل مكون من كلمات عديدة منسوجة مع بعضها البعض، توقف ليفتحه ويتأمله ولكن ضوءاً خاطفًا جعله يتجمد للحظة ثم يحدق أمامه، مَن هنا؟ أين أنا...؟

ترك ماكفلر ولكنه أدخل المنديل في جيبه ليبحث عما رآه يخطف في الهواء، وسار نحو مفترق طرق داخل أروقة زجاجية معتمة، أولها كان ممرًا ضيقًا وصغيرًا لا يسعه المرور من خلاله، الثاني كان أطول وأكثر نحالة فيصعب المرور على أية حال، بينما الأخير كان موصدًا بباب ما، حينما اقترب منه لاحظ أن الباب كان عبارة عن ضمادات متعددة ملفوفة حول بعضها البعض يظهر وكأن الباب مصاب، فبعض دمائه تسيل من خلال الضمادات، شعر بألم عميق في صدره ليتراجع للخلف، شعر بأنه يعرف هذا المكان، وأنه مألوفٌ بالنسبة إليه.

سمع صوت السيد خوليوس من خلف الباب المصاب:

– آدومان، مد يدك وافتح الباب، لا تخف.

أشعره صوته بالأمان، قال مجيباً بصوت متهدج:

– لا أريد أن أقترب من هذا الباب، سأعود.

استدار ليرجع فتفاجأ بوجود ماكفلر يقف خلفه، كان يقف بصرامة مانعاً إياه من التحرك في أي اتجاه كان، بصمته ووقفته الثابتة لم يقل شيئًا سوى أنه منعه تماماً من الفرار من مواجهة نفسه، وجود صديقه معه في المكان أمرٌ أشعره بالهدوء والقوة فهمس:

– حسناً، أشكرك ماكفلر.

شعر أنه يود أن يلمس الباب بيد نظيفة، فأخرج المنديل الذي منحه إياه صديقه من جيبه وحينما فرده ليستعمله؛ صدم أن الكلمات كانت مرتبة معا كالتالي لتكون نسيجاً قوياً: حب – صبر– وفاء– تعاون– صداقة– ثقة.

كانت ذات الكلمات تتكرر معاً لتكون نسيجاً قوياً لفه الشاب حول يده وأمسك بأُكرة الباب ثم دفعه للوراء، كان يهاب ما سيراه هناك إلا أنه لم يتسنَ له بالفعل رؤية أي شيء، بل وجد نفسه فجأة على السرير الذي رأى نفسه عليه في الجلسة الماضية، كان يجلس فوق أخيه المسجى وهو على السرير بينما أخوه مثل النائم عنده، يداه مغلولتان بلحمٍ وعضلات في صدر أخيه.

أصابته رهبة قوية وحينها رآى خوليوس يقف في الهواء يرفرف بجناحيه، من شدة هول الصدمة كاد يغيب عن ذاك الـــوعي، وسمـــع خوليوس يقول له:

– فيمَ محاولة الفرار؟ لم لا تبقى لنتحدث؟

– لم أعد راغباً في الحديث، الأمر يرعبني، لا أعرف ماذا سأرى.

– سترى كل خير، فلا تخف.

مد خوليوس له قلمًا وقال:

– وجدت هذا القلم ملقياً في مدخل غرفة الحـــزن، إنهـــا الآن ترمم، من الواضح أنك حاربت بما يكفي ليبدأ هذا المكـــان بتـــرميم نفسه، لكن وجود جثة أخيك هنا، ستمنعك من المضي قدماً في طريق التحرر من الألم القديم.

التفت خلفه وهمس:

– ألبرت غير قادر على الاهتمام بنا كما كان يفعل في الماضي.

خوليوس بجدية:

– لم تعد بالتفكير إلى شيء قد خلا ومر منذ زمنٍ بعيد، ألم يكن حرياً بك أن تركز في وقتك الحالي، أنت من يعول أهلك وليس هذا الميت تحتك، انظر جيدًا.

حدق آدومان في المكان ليرى إخوته الخمسة جميعًا يجلسون على قارب وأمه تجلس في الخلف تمسك بالدفة التي تغير المسار، بينما رأى نفسه يجلس في الأمام ممسكًا بمجدافين كل واحد منهما من نوعٍ مختلف، فأحدهما من الصلب الخفيف وقد دمغ بكلمة (الصبر) والآخر من الذهب وقد دمغ بكلمة (الإخلاص) كان يجدف بينهما، بينما تعلو وجهه الغض ملامح الجدية والتعب لكن الوجوه من خلفه راضية سعيدة والقارب يبحر في العباب بكل هدوء وبدون شقاء.

كان هذا المنظر يمر من أمامه حتى اختفى وظهر خوليوس في ذات البقعة على الهواء.

شعر آدومان أن أخاه قدم ما يمكنه أن يقدمه بحسب قدرته، وإن ضل الطريق في النهاية، لكن هذا لا يجعله شريراً بشكلٍ كامل.

مد يه وقال:

– سوف آخذ قلمي.

منحه خوليوس إياه، وحينما صار في يده تحول على الفور إلى قلمٍ من ذهب، لم يفهم آدومان أي شيء ولكنه همس:

– كيف السبيل إلى الكتابة به وأنا محبوس ها هنا.

– ماذا تريد أن تخبر أخاك ليرقد في سلام، وتمضي أنت إلى الأمام؟

– لم أفكر يومًا بأن أصارحه بما أشعر به.

– حان الوقت لذلك إذن.

هز آدومان رأسه ثم مرت لحظات تأمل فيها ذاته ليسمع أخاه يهمس له من تحته:

– انهض من فوقي، لقد تعبت من حملك، أنت كبرت يا أخي، حتى متى ستظل تجلس فوقي، لم تعد طفلاً.

شعر بالسعادة المبكية لسماعه هذا الصوت العزيز الذي يسميه صوت القدوة الأولى، والذي مهما حصل فسيظل هذا الصوت وصاحبه ذا مكانة عميقة في قلبه.

أكمل الصوت في بطريقة حنونة:

– أنت أقوى مني، لطالما كنت ثابتًا وجسورًا، إن بقاءك هنا في هذه الغرفة ليس عدلاً، العائلة في انتظارك على الجانب الآخر من الحياة، دعني.. إنس أمري، أرجوك افعل، لقد سلمتك الدفة منذ زمن لأنني لم أكن قادرًا على الاستمرار، ليس لدي الجلَد الذي منحك الخالق إياه، لطالما كنت الأقوى.

استشعر آدومان القوة في ذاته مع الكلام الذي سمعه ففتح عينيه وأمسك بالقلم ليكتب على جبين أخيه:

– لقد سامحتك، أنت في حلٍ من ذنبك الذي اقترفت بحقنا.

وحدها ومن تلقاء نفسها، ذابت الأوتار التي تربطهما معًا، وكان منظر أخيه الصغير يتحول إلى الرجل ذي الثمانية والثلاثين عاماً، لتظهر عليه علامات الزمن وكل ما رآه في سحنته الضعيفة قبل الموت.

في كل لحظة تمر كان الشعور يزداد قوة وشعر بقوته تستيقظ لدرجة أن صدره صار يشع بنبضٍ متتالٍ من الضوء البراق، اختفى السرير الخاص بالمرض واختفى معه خيال ألبرت الآن ليجد أنه يجلس على القارب، المذكور آنفًا، مع إخوته، وأمه تمسك بالدفة من الخلف لتغير الاتجاهات، بينما هو في الأمام والمجدافان في يديه القويتين.

شعر بأحدهم قريبًا منه وحينما التفت رأى قاربًا أصغر ملتصقًا بقاربه يجلس فيه ماكفلر وخوليوس، وعلى الجانب الآخر قارب آخر فيه المسيو فيكتور المربي الأول لهم.

لم يفهم لم كبر القارب وأصبحت قوارب أخرى ملتصقة به، لكنه لم يفكر وهو يراهم يخرجون مجاديفهم ليساعدوه في التجديف نحو المجهول الجميل الذي يخبئ الكثير، غسل كل هذا قلبه بطريقة شعر معها أنه ولد من جديد.

حينما بدأوا يتحركون إلى الأمام شعر بنفسه يعود إلى الغرفة، وبهدوء دون أن يشعر فتح عينيه المنهكتين من كثرة البكاء النفسي،

وسالت دمعتان حملتا فيهما آخر ما كان يلتصق بقلبه من أسى، ليجد نفسه يجلس في المكتب وبالقرب منه خوليوس ينتظر استيقاظه مع كارل.

كان قلبه الآن مستقرًا ومشاعره كلها في مكانها، بل يشعر أنه عاد إلى نفسه التي يذكرها، وقد توازنت نفسه مع المكان وزال عن روحه الغضب العارم.

حدق فيهما ثم اعتدل لم يصدق الشعور الذي يخامره الآن، هل هذا هو السلام؟ إنه لا شك كذلك، كان ممتلئًا بالامتنان لهما معاً، وقال بصوت خافت:

– أشكرك كارل، لقد ظلمتك كثيراً.

لا عليك أيها الوطواط، من يهتم، قد يبدو أحدنا ليس على هوى الآخر، لكن ثمن ماذا، اختلافنا هذا هو مصدر قوة لكي نعاون بعضنا البعض.

حدق به آدومان وهو يتذكر أنه لطالما نعته بالوطواط وكان هذا أمرا بلا معنى بالنسبة له:

– لم أفهم قط مسألة الوطواط هذه.

تبسم كارل وهو يقوم بجمع أغراضه الآن قائلا:

– ألست وطواطاً في عالم العقل الباطني!

– أنَّى لك أن تعرف ذلك مثلاً؟

– لي طريقتي، المهم أنك عدت إلى ذاتك وأنت الآن بخير.

رمقه آدومان شاعرًا بالاحترام الشديد له وهمس:

– أنا في عجزٍ تام عن الاعتذار للطريقة التي كنت أعاملك بها.

نهض خوليوس وبدأ في صب كوب من القهوة وهو يقول:

– لا يلومك أحد في هذا، كارل يثير الغيظ بطبعه، لكنه كان تلميذاً نجيبا لدي في يوم من الأيام، وقد أثبت نفسه كثيراً حتى وصل إلى هذا الحد من الإبداع في عمله.

كانوا يحتسون القهوة بسلام وآدومان يفكر رباه، من أنت سيد خوليوس؟ إن لك من التأثير الإيجابي على حياتي وحياة الآخرين الكثير مما يفوق أن نحصيه، ومع هذا تتصرف دومًا وكأن لا شيء يعينك مما يجري من حولك، بينما تعمل في الخفاء من أجل إسعاد الآخرين.

في ذلك اليوم عاد للبيت يحمل الحلويات والكعك والمرطبات، لقد غاب بالعقل والجسد عن أهله كثيرًا، عليه أن يعوض ما يمكنه أن يعوض، الحياة تجري مثل الرياح تحمل أثقالاً وترمي بأخرى، علينا أن لا نقع عن الركب لوقتٍ أكثر من اللازم، كان إخوته يتقافزون من

حوله وهو يضع على المائدة ما لذ وطاب من الحلوى والكعك البارونزي والكثير من المرطبات المتنوعة، جذبهم كلهم دفعة واحدة وضمهم ضمة طويلة عريضة في صدره فاستضحكوا وقبلوه، بادلهم القبلات على رؤوسهم ليشعرهم بوجوده وبامتنانه لوجودهم في حياته، وليشعر بهم فيعيش من جديد ويحيا.

obeikandl.com

الفصل العاشر

خوليوس.. من أنت؟

العمل يزداد ضرواة، والكثير من المغامرات المثيرة للعجب العجاب يمر بها آدومان في صحبة الغامض المتزن خوليوس، كان يتساءل في داخله عن كينونة هذا الرجل، ولكنه لم يسأله ألبتة خوفاً من أن يكون يتدخل في خصوصيات قد يرفض خوليوس الخوض بها، والحقيقة أن هذا الغموض الذي يلف شخصية هذا الرجل الأمازوني يجعله مثيراً للاهتمام أكثر فلا يغدو مهتماً بمعرفة التفاصيل، لكن الأمر تم طرحه ذات مساء.

كان قد قرر هو وماكفلر أن يحضرا لأمسية برية لرفاق، إنهم يعملون بكد وبلا توقف، لا أحد في هذه المنشأة يحصل على الإجازات وما إلى ذلك، كل ما يحصل هو الكثير من العمل وحسب.

obeikandl.com

ولهذا فقد أرسل آدومان إلى صديقه ماكفلر أن يقوم بدعوة كل من كارل تاداشي وخوليوس الآنكا لأمسية برية في الريف البارونزي بالقرب من النهر، كل الفكرة كانت أن يقضوا بضع ليال في مساءات الخريف البارونزي، بلا هموم أو مشاغل، لم ينس آدومان أن يقدم طلباً للحصول على بضعة أيام مجازة من العمل كي يمرح هو ورفاقه، سمع من البعض أن خوليوس لم يحصل قط على إجازة ولم يكن يجتمع في احتفالات المؤسسة بالرغم من إصرار الكثيرين على حضوره.

لم يفهم لم وافق على الحضور معهم في دعوتهم المتواضعة، التي لا تتضمن الكثير من الإغراءات، سوى بعض اللحم الذي سيقومون بشوائه والحلوى مع القهوة، وبالطبع الكثير من المرطبات.

كانو في الموقع الذي اختاروه بين أحضان الطبيعة وصوت النهر على مقربةٍ منهم، كانت الملابس اليوم هي الملابس غير الرسمية، والكل يرتدي ما يروق له، فارتدى آدومان الجينز الكحلي ليظهر طوله الحقيقي مع قميص برقبة عالية من اللون البني بأكمام طويلة، وارتدى كارل زيًّا آسيويًّا مريحًا له كان بلون ممتزج بين الأخضر العشبي والأزرق، تحته سروال فضفاضٍ بلونٍ أبيض، أما ماكفلر فاتشح بالسواد في بنطالٍ أسود وقميصٍ أسودٍ أيضًا تاركًا ستارة شعره الحالك لتسدل الليل على هويته، لكنه كان مرتاحًا هكذا.

أما بالنسبة لخوليوس فكان يجد صعوبة حتى الآن في التأقلم مع الملابس العصرية، وانتهى به الأمر أن يرتدي بنطال العمل الكحلي وعليه أحد قمصانه السماوية ولكن بدون ربطة عنق، بينما شعره في فوضى حقيقية، ولم يتوانَ عن الاعتراض حالما رأى أناقتهم:

– ماذا؟ لم تتأنقون بينما أبدو وكأن هِرّة تصارعت في شعري وملابسي.

ضحك كارل بصوت مسموعٍ بلا خجل، ومنحه خوليوس النظرة التي يستحقها، إلا أن ماكفلر برر ببساطة وبدون تفكير وهو يقوم بتركيب الخيمة:

– سيدي، ما ارتديه ليس أنيقًا، هو ما أحب ارتداءه وحسب.

اقترب آدومان من خوليوس وكان شاملاً بطوله فقطب خوليوس ومنحه نظرة جانبية وهو يقول:

– والآن تقف أمامي تستعرض طولك، وأيضاً ذوقك الجيد في الملابس الرجالية، هه.

لم يجبه آدومان وهو يبدأ في إصلاح حزام الفارس أو هندامه بشكل عام، ثم قال بسرور حالما انتهى:

– تبدو جديدًا، هيا وفك بعضًا من هذه العقد من وجهك سيدي، نحن في رحلة لترويح.

تأفف خوليوس غير معجب بما يسمع وقال مشيرًا للمكان:

– إنه من حسن التدبير ما فعلتم، المكان هنا يذكرني بمـــوطني وبماضٍ بعيد جدًا.

كان آدومان قد أعد العدة للجلوس حول النار الـــتي ســـوف تدفئهم حالما يحل المساء البارد في هذه الأنحاء وقال مجرباً:

– حقا سيدي! ومن أين أتيت إذن؟

قال خوليوس بدون أدنى تردد:

– لم أكن من هنا يا بني، لقد أتيت من عالم آخر تمامًا، يختلـــف عنكم في أشياء عديدة ولكن تحكمه ذات القوانين والمبادئ.

استرعى حديثه المتبسط هذا مسمع الشابين الآخرين، بدت على أدومان دهشة لما يسمع ولكنه تمنى أن يتحدث خوليوس أكثر،كـــان الجو مواتيًا، فكارل يجهز للشواء ومكفلر يرتب البطانيـــات داخـــل الخيمة رفعا أعينهما إليه، لم يكن يلحظ ما يدور وهو يجهز القهوة من أجل الجميع في إبريقٍ جميل خاص بالرحلات وأكمل من حينه:

– لقد كنت يافعًا وكنت أيضًا مغرورًا إلى حد يفوق احتمـــال الآخرين، إن كان الأمر يهمكم قد أحكي لكم شيئًا أو شيئين عـــن الذي كنته في صباي حتى وصلت إلى ما صرت إليه اليوم.

ترك الشبان كل ما في أيدهم وقال كارل مبهوتًا بقهر:

– سيد خوليوس! إنني كنت أرجوك حرفيًا منذ سنوات أن تحكي لي ربع ما قلته الآن، هذا ليس عدلاً.

ضحك ماكفلر وهو يحضر الأكواب للجميع بينما يجهز الحلوى كي تكون قريبة منهم وهي كعك وبسكويت:

– هذا مضحك يا صاح.

ثم جلس وأكمل:

– هل تشعر بالغيرة؟

قال آدومان ببساطة:

– بلا شك يفعل، لا تنس أن علاقتي بالسيد خوليوس مختلفة عنكم جميعًا.

اعترض كارل:

– غير عادل أبدًا، إنني أعرف السيد خوليوس قبلكما أنتما الاثنين، ومع هذا لم يقل يومًا لي كلمة واحدة مما قاله الآن.

ضحك الشابان لما يقال، كان خوليوس يتجاهل كل هذا، معتبرًا حديثهم مجرد لهو لشبان لم يروا الكثير في حياتهم، فصب أكواب القهوة السوداء حينما أضحت جاهزة، ثم قال وهو يحدق أمامه، وكأن ستار الماض يفتح مصراعيه له فيرى منه ما سيقص عليهم:

– من حيث أتيت، أرض أخرى في زمنٍ أكثر قدمًا، كان اسم بلادي الآنكا، على مشارف جبال ماتسو بيشتي في الأرض الحمراء وحول غابات الأمازون، عشت هناك وترعرعت وحيدًا، قصيرًا، ومميزًا عن الآخرين بقدراتي، كنت أدعى حينئذ خوليو المعتد.

* * *

المكان، الأرض الحمراء، في أعماق الأمازون رئة العالم النابضة.

فوق إحدى الأشجار العالية والممعنة في القدم، جلس خوليوس على أطرافها يحرك جناحيه الذهبيين مع حركة الهواء العليل وقد زالت الشمس عن كبد السماء، كان بطبعه شابًا هادئًا، بيد أنه لم يكن محبًا للآخرين لأسباب عدة، ولم يكن يهتم مثقال ذرة لما يظنه الآخرون عنه، فقد حصل اليوم على وسام الشرف، والدرجة الأولى في التخرج على دفعته كلها، كانت الأكاديمية التي انضم إليها تخرج فرساناً ماهرين في العمل مع ذوي المناصب الرفعية وأصحاب السمو وما إلى ذلك.

وهو دوناً عنهم، قدم أفضل النتائج في كل الاختبارات المتاحة، في الجسدية حاز على الميداليات الذهبية، على الصعيد العلمي فعل المثل، وحتى على الصعيد العملي البحت.

سخر منه الساخرون على قصره، فهو بالفعل قصير ولا يتعدى طوله المائة وستًا وستينَ سنتيمترًا، بينما أقرانه تعدوه طولاً وحجمًا.

وبما أنه ينحدر من عائلة خرّجت الكثير من الفرسان، فهو لا يتوانى عن التفاخر بهذا في كل حالٍ وحين.

فيمشي متبخترًا بزيه الأصلي الثمين الذي يلف على الخاصرة مخبئًا العورة وكاشفًا عن الصدر والساقين، لتظهر العضلات المفتولة، والجسد البرونزي من أثر التمرن المستمر في الشمس كل صباح، تميز خوليوس على العديد بدقة مواعيده وفهمه البديهي السريع لكل ما يقال أو يدور حوله، فلم يزده هذا إلا غروراً.

اليوم، وبعد التخرج سلم ورقة التعين الرسمية وكان يتفاخر بأنه حصل على وظيفة على الفور بينما الآخرون لا يزالون يقدمون اختبارات جانبية تحسينية، فتح الورقة الرسمية وكان اسم الآنكا الذي سيعمل لديه يلمع بلون الذهب (جيليان الأول).

شعر بالسعادة ولمعت عيناه الكستنائيتان، لقد سخروا منه كثيرًا للعديد من الأمور أما الآن فسوف يتركهم قاطبة سيغادر كي يقدم خدماته ومميزاته للآنكا الأول في الأرض الحمراء، إنني حتماً أستحق ذلك.

وهكذا، حمل حقيبة من الجلد الفاخر خلف ظهره بين جناحيه، وحلق من تلك الشجرة العالية نحو المكان الذي ذكر في الورقة الرسمية بين يديه، كان الهواء يداعب وجهه وشعره يلوح في الخلف مثل سوطٍ صغير، كان في عقله حديث طويل عن الطريقة التي سوف يدير بها

الأمور، صحيح إنه الآن في الخامسة والعشرين من عمره ولكنه يعتبر نفسه رجلاً خارقاً للعادة، إن بعض من درسوا معه لم يفهموا بعض المواد التي كانوا يتلقونها لغبائهم الفطري، وتبسم ساخرًا.

وجد قبابًا ذهبية مثل الحلزونات تلمع في الأفق من بين الأشجار العالية جداً فاستبشر لذلك وصار يهبط في هدوءٍ باحثاً عن المدخل الرئيسي كي يدخل منه.

هي مدينة كبيرة جدًا على أكتاف الأشجار المعمرة، أكواخ عديدة هنا وهناك، وهو يعرف هذا الشعب جيداً فقد قرأ عنه وتبحر بما يكفي ليفهمهم، يقال إنهم نوعٌ من البشر، وليس لديهم أجنحة وليس لديهم قدرات خارقة.

سيقدم خدماته ويبهرهم، لطالما خدم جيل الفراش الفرساني الذي ينحدر هو منه، أقوامًا مثل بشر وآخرين ليسوا كذلك، ولطالما تميزوا كثيرًا في أداء مهامهم وبرزت منهم أسماء لا تنسى، كان هدفه أن يسجل اسمه على شجرة الشرف الهائلة في أعلى جبال ماتسوبيتشي في الأرض الحمراء.

نزل إلى الأرض وطوى جناحيه خلفه ثم سار إلى داخل المدينة مختالاً يرتقي سلالم بعد أخرى، قابله رجل عند المدخل الرئيسي ثم طلب منه أن يعرِف عن نفسه فقال بلا تردد وهو يرفع ورقة الترسيم:

– اسمي خوليوس وأنا فارس تم توظيفي لخدمة الآنكا جيليان هنا، أرجو أن توصلني إلى حيث يقيم حضرته.

كلمة الآنكا تعني الأمير أو حاكم القبيلة، لم يكن مستغربًا وصول خوليوس الآن للمكان.

قاده الرجل إلى شخصٍ آخر قال له:

– حسنا، مرحبا بك، إن الآنكا جيليان الآن يقدم لأحدهم جلسة ذهنية عليك ألا تزعجه ألبتة فهو لا يحب المقاطعة.

– حسنًا.

وصلوا إلى ساحة كبيرة جدًا بُنيت من الخشب فوق شجرة كبيرة تحيط بها الأوراق من كل صوب، وخيوط الشمس تنسل في هدوء من خلالها.

لم تتوقف أصوات الطيور عن نداء بعضها البعض لتصدر أصواتها صدًى عاليًا جدًا، بينما يمكن سماع صوت القرود تتصايح في منطقة أكثر انخفاضًا فيأتي الصوت من الأسفل، المكان كله مثل قطعة من الحلم.

كان هناك في الوسط يجلس على حشية فاخرة من اللون الكحلي، جسده الممشوق يكشف عن عمر قضاه متسلقًا هذه الأشجار، كان يغمض عينيه وشعره الأسود مجدول من الأعلى وحتى الخلف، من الجانبين رصعت بعض الأحجار الكريمة التي تدل على

مركزه، أخاف منظر البأس هذا خوليوس وأزعجه أن يرتجف لمرأى رجل جسيم البدن كهذا، كان محوطًا بالناس من النساء والأطفال والرجال الذين يجلسون في هدوء يستمعون إلى ما يقوله، فتوقف على مقربة من المكان، إن هذا الرجل قد يكون في الستين من عمره أو أقل، لكنه يظهر بجلاء مدى هيبته على الجميع هنا، شعر بالفخر كونه سيعمل لدى رجل بهذا المستوى: كم سأغيظ أقراني ممن ظنوا أنهم يفاضلونني بأبدان قوية صلبة، تبًا لهم.

حينما انتهت الجلسة، كان السيد جيليان الآن يستمع إلى حديث إحدى النساء عن ابنها الذي يعصي لها كل أمر، والآنكا يستمع بلا مقاطعة وحينما فرغت من حديثها كله، سألها في هدوء:

– هل تتقاتلين ووالده أمام عينيه؟

– نعم نفعل.

– ماذا تريدين منه إذن! أنتما جبهة محطمة وابنك صار رجلاً، كيف له أن يحترم أيًا منكما وأنتما لا تحترمان بعضكما البعض من الأساس، انهضي يا صغيرتي، وحلي مشاكلك وزوجك، وحينما تتحسن الأمور سترين الفرق الهائل في طريقة بر ابنك لك.

مسحت عينيها من دموعها وقبلت يده شاكرة ثم غادرت، تمت دعوة الجميع على موائد معلقة هنا وهناك ليأكلوا وينعموا، إنه رجلٌ كريمٌ إذن.

كان قد أنهى جيليان كل شيء وبقي هادئًا ينظـــر إلى الأفـــق، بمجرد أن اقترب منه خوليوس حتى سمع جيليان يقول له:

– من أنت، حسبك لا تقترب أكثر.

ثم التفت إليه، لتخترقه عينان فضيتان كانتـــا كمجـــوهرات في وجهه البرونزي تماماً، تجمد خوليوس عنده ولم يحر قولاً حيث خانـــه لسانه، تفحصه جيليان لمدة ما ثم قال له:

– عد من حيث أتيت، لست في حاجة لك.

ارتفع حاجبا الشاب مندهشاً مما يسمع وقال:

– سيدي، إنني هنا من أجل أن أعمل كفارس لك.

قاطعه جيليان:

– أنا في حاجة إلى فارسٍ أي نعم، إلا أنني لا أحتاج واحدًا مثلك.

– لم؟ إنني أفضل الشبان في دفعتي، والأكثر دراية بهذا المجال.

– لا تكثر من الحديث وغادر من حيث أتيت.

استشاط خوليوس غضبًا واستدار من تلقاء نفسه ليغادر حينما سمع الرجل يقول له:

– أخبرهم أنني اختار فارسي بنفسي، أنت في حاجـــة ماســـة لتطهير يا بني.

استدار خوليوس وقال دون أن يفكر:

– ربما هذا ما تظنه أنت، لكنني أنحدر من عائلة كريمة خدمت قبيلتكم هذه وغيرها لأجيال، وأن تحكم علي دون أن تجربني لهو شيء خال من الحكمة.

كان جيليان يرمقه من خلال أهدابه الحالكة السواد ثم همس:

– غادر يا بني وليكن الخالق في عونك.

لم يصدق خوليوس أنه يسمع ما يقال وغادر بخطواتٍ سريعة ليخرج من القرية ولكنه توقف في منتصف الطريق، ماذا سيقول له الجميع حينما يرونه عائدًا يجر أذيال الخيبة بورقة خالية من توقيع القبول، لن يحتمل هذا النوع من العار، ليستدير من حينه ويعود إلى حيث الساحة الكبيرة مفكراً سوف يعرف من الآنكا أسبابه ليرفضه هكذا فجأة.

ولكن حينما عاد وجد شبانًا يكنسون المكان وينظفونه، واشتم رائحة عطر الآنكا فلحق به على سلم من السلالم حتى وصل إلى طابقٍ أعلى حيث وجده يجلس ويستعد لتناول الطعام مع زوجته وأبنائه.

بقي يقف عنده حتى كلت قدماه، فجلس على غصن قريب، وظل لمدة ثلاثة أيام يتتبع الآنكا في كل مكان بينما جيليان يتجاهله تمامًا وكأنه لا يراه.

كان جيليان الآن قد أقسم ألا يعود إلى الأكاديمية وهو خاسر بلا سبب، هو لم يخسر شيئًا قط، ولم يهزمه فتى أو فتاة في أي درس أو تحدٍ، وهنا سوف يحاول جهده.

حاول خوليوس أن يتحدث إلى الآنكا ولكن الأخير يتصرف وكأنه غير موجود، حتى جاء يوم كان الآنكا سيغادر مع بعض الرجال إلى الغدير القريب فيأخذون حمامهم ويغسلون ثيابهم وما إلى ذلك، حالما خرج الآنكا يحمل خادمه حقيبة الجلد التي تحوي أغراضه حتى انتزعها منه خوليوس وقال بأنفة خالية من الذوق:

– دعني أقم بذلك؟

التفت جيليان ورأى الموقف الذي يدور أمامه فأشار للخادم بأن يترك له الحقيبة، فرح خوليوس بها ولحق به وهو يقول:

– سيدي، أنا أعرف أن ثمة أمرًا لم يرق لك في، ولكن على الأقل لم لا تخبرني، أن تدعني هكذا في حيرة أمرٌ لم أعتده؟

– وعلامَ اعتدت؟

– إنني معتاد تماماً على النجاح والمركز الأول في كل شيء وحتى حينما تم توظيفي فقد حصلت على عملٍ عند الآنكا الأول في الأرض الحمراء.

– حقًا؟

– نعم، لذا، أتمنى أن تخبرني لم رفضتني، سأكون مفيداً جداً لك، جربني فقط.

توقف جيليان عن السير واصطدم به خوليوس فكان أقصر منه بمراحل، منحه جيليان نظرة تقييمية هزت قلب الشاب فهو لم يعتد على أن يقيَّم بهذه النظرات الصارمة، رفع جيليان يده وقال:

– لست في حاجة إلى شابٍ منشغلٍ في نفسه، أنت حتى لن تنتبه إلى حوائج الناس هنا ومتطلبات العمل لدي، إنني ملك لشعب كما ترى.

فكر خوليوس، لست منشغلاً بنفسي، وقال:

– لقد أخطأت الحكم علي فأنا لست منشغلاً بنفسي.

زفر جيليان وقال بملل:

– أنت مُمل أيضًا، لقد قلت أنا عدة مرات حتى الآن لدرجة أنه أصابني النعاس.

توقف خوليوس عن الاعتراض وشعر أنه سخيف، لم يعترض على طباعه أحد، هل يكرهه الناس في الخفاء؟ بقي يحدق في ظهر جيليان وجديلته بين كتفيه القويتين يسير بجدٍ إلى الغدير والرجال يجتمعون كي يسبحوا معاً ويتبادلوا الحديث في أمورٍ عدة.

وعند الغدير تجاهله من جديد سيد جيليان واعتبره خفياً، وحتى بالرغم من أن خوليوس يخدمه بكل ما أوتي من قوة فإن جيليان كان يتقبل الخدمة دون كلمة شكرٍ واحدة.

في نهاية هذا اليوم كان خوليوس قد أنهكه التعب، يحدق في صورته في الغدير مفكراً ما الذي يمكن أن يرفض في شخصيتي، أو في قدراتي، إن جيليان الآنكا هذا لا يعرف ما الذي يخسره.

لاحظ الفرسان الآخرين من حوله وهم يخدمون العوائل الأخرى، إنهم يبدون في حالة مزرية فأحدهم يجري هنا وهناك وهو غير مهندم، والثاني تعلو وجهه تقطيبة مروعة قد تفسد أي جمال في العالم، هذا غير المعاملة الجافة لبعضهم البعض، تباً أكره تواجد فرسان آخرين في المكان ذاته.

وتأملهم.. إنهم حتى ليسوا أهلا للمنافسة، تأمل صورته المنعكسة على الماء لن أقول إنني الأكثر وسامة ولكنني رجل قادرٌ على القيام بمهامي على أفضل صورة، بيد أنه لا يمنح نفسه الفرصة لتجريبي.

– أيها المعتد.

التفت خوليوس إلى جيليان وجده يستعد مع رفاقه لتحضير الطعام وأشار إلى نفسه في تعجب:

– أنا؟!

– ومن عساه يكون؟ فلا أحد معتد ومتغطرسٌ سواك.

نزل خوليوس عن الصخرة التي يرتكز فوقها وقال بجديته:

– حسناً فلنقل إنك محق، لكن لدي أسبابي، هل تريد أن تحصل على فرسان مثل الثلاثة الذين يبدو وكأنهم موتى هناك.

ضحك عليه الرجال، ولكن خوليوس لم يكن من النوع الـــذي يلاحظ أي لمز يدور عنه من شدة استغراقه في نفسه في هذه اللحظة، تبسم جيليان وقال:

– ربما سأحتاج فرساناً يبدو عليهم أنهم يعملون بالفعل، قـــتم ببريقك أكثر من اللازم وهذا واضح.

– الأناقة ليست بعيب.

– نعم صدقت، ولكنك لا تصلح لي وحسب، لم تبق حتى الآن هنا.

– لست من النوع اليؤوس، لقد أقسمت لنفسي إما أن أقنعك أو تقنعني.

ولكنه كان يشعر الآن بالسوء والانزعاج وفكر، ربما أنا لست بالروعة التي أظنها، هو غير مقتنعٍ بي، ما الذي ينقصني.

لاحظ جيليان ملامحه التي تبدلت وكأنه دخل في حيرة مع نفسه، فقال ليهدئه:

– اسمعني يا بني؟ أنا لا أستنقصك، لكنني أخبرك ببساطة أنك غير صالح للعمل في شيء مثل عملي، إنني في حاجة إلى أن أجد شاباً متفرغًا في العقل والروح كي يعمل معي فيقدم نفسه من أجل الآخرين، لنتعاون من أجل بشرية سعيدة، أنت يا بني في عقلك أمورٌ ليست من الأهمية بمكان هنا بحيث أستفيد منها، فقط غادر.

كان خوليوس قريباً من السيد جيليان وشعر أنه ضئيل فقال:

– جربني! جربني ولو لمدة بسيطة، أنا مستعد للعمل في أي شيء، أي شيء، ولكن يصعب علي أن أقنع بالعودة إلى حيث كنت فقط لأنك لم تعجب بشخصي، هذا غير عملي ألبتة.

أشار خوليوس إلى أحد الفرسان هناك وكان يكتب بلا كلل بينما عيناه تعلوهما علامات السهر ويظهر بجلاء أنه لا ينال قسطاً كافيًا من الراحة:

– إن الفرسان الحقيقيين، لا يهتمون مثقال ذرة كيف يبدو مظهرهم خلال اليوم بقدر اهتمامهم بكيف يبدو عملهم الذي يقدمونه للشخص الذي يعملون لديه، فإن وجدت في نفسك القدرة على أن تقدم لي عملاً جيداً خلال شهر من الآن فإنه سيسرني أن أستخدمك لدي، في النهاية قالوا لي إنك الأفضل، إنه دورك لتقنعني أنهم محقون.

أشرق وجه خوليوس وقال وهو ينهض:

– نعم، أعدك أن أقدم أفضل ما لدي، أرجو أن تبقيني على اطلاع برأيك بمستوى عملي معك، سأحتاج إلى ملاحظاتك كي أكون عند حسن ظنك.

كان قلبه يرتعد، لا يعرف كيف شك بنفسه وخاف، يعلم أنه بارع وحذق في عمله، ولكن سيد جيليان يبدو من النوع الذي لا يقنعه أي شيء أو أي مستوى، إنه ذلك النوع من الرجال، وهذا النوع لا يرضى إلا بالمستوى الأفضل.

كان يخفي فرحته وقد أرعبته حقيقة أنه لا يملك إلا شهراً ليقدم أفضل قدراته، هل حقاً سيكفي شهر؟ وماذا سأفعل إن لم يجدني أهلاً لما يفعلونه هنا؟

أخبره جيليان وهما في طريق العودة بأنه سيقدم له ملفات العمل الحالية وسوف يترك له الطريقة الفضلى لتحقيق أفضل جدول ليبدآ فيه هذا الأسبوع.

الفصل الحادي عشر

لدي ٣٠ يومًا فقط

في غرفة مجوفة صنعت من أكبر الأوراق على هـــذه الأشـــجار القديمة، الضوء الخاص بالبراعات التي تختبئ في دورق كبير معلق على السقف وتدور داخله تضيء بجمال وبهاء على الموجـــودات في هـــذه الغرفة الجميلة، كانت هنالك حشية للنوم، بالقرب منها صندوق وضع فيه خوليوس أدواته القليلة من مشط من الخشب الفاخر لشعره البديع، ونزع عنه البرونز الذي يزين به زنديه، كان جيليان قد خلد لنوم منذ مدة وترك له ملفات عديدة تفسر له طبيعة العمل هنا وما هو المتوقـــع منه.

obeikandl.com

كان منبهرًا إلى حدٍ كبير بما يرى، طبيعة عمله الغريبة تقوم على أن يأتي إليه الشخص فيحمل في داخله همًا أو حزنًا من أي نوع، ويقوم السيد جيليان بالتحدث إليه في حالة تشبه حالة التنويم المغناطيسي، بحيث يغير له تفكيره إلى الأفضل ويريه النور حيث يكون قد غرق في الظلام، رباه! إن هذا هو العمل الحقيقي، أود أن يرتبط اسمي به، من حسن حظي أنني وجدت فرصة للعمل مع هذا الرجل العظيم، لاحظ أغلب الورق المؤرخ بتاريخ العام الماضي فيه موقع باسم فارس آخر/ إميليو درو.

من المؤكد أنني لست الفارس الأول هنا، ولكن أين فارسه إيميلو هذا؟ عجباً له لا يبدو من الناس الذين يتخلون عن شخصٍ يعمل لديهم ومن الواضح من خطه أنه كان فارساً واعداً.

رتب الورق جيداً وخطط لجدول الغد، كان يفكر سوف أغلب إيميلو والجميع، سأكون رقم واحد هنا بلا منازع، نعم أنا قادرٌ على ذلك.

إلا أنه لم يكن مستعداً لما حصل بعد ذلك، أولاً كان يأخذ وقته في ارتداء ملابسه حينما فتح الستار ودخل يصيح جيليان به:

– هل سأحضر لك فطورك أيضاً على الفراش، هيا الحق بي لدينا عمل!

ترك خوليوس المشط وغادر مهرعًا إلى الخارج، كان جيليان يلف رداءه عليه بسرعة وهو ينهر الخدم تأخرهم في تحضير عدة الصيد التي سوف يبدأون بها اصطياد غداء لكي يكون جاهزاً قبل وصول سهم الشمس في كبد السماء.

لاحظ أن الرجال من الأكواخ في طبقات منخفضة أكثر كانوا يلفون أرديتهم حول خصورهم يجهزون الحراب والرماح، وأحدهم يقول إن أفعى الآناكوندا قد تتبرص في مثل هذا الوقت المبكر، على الجميع ألا يصدر الكثير من الأصوات على الأرض.

كان يحدق في نفسه إنه مستعد أكثر من اللازم فهو لن يعمل هنا بل سيغادرون إلى أطراف النهر، سمع صوت جيليان الغاضب:

– خوليو المعتد، هيا.. فيم وجومك؟

حلق خوليوس على الفور فوقه وحمل من بين يديه الرماح والحراب، كان يلحق بهم وهم يتقافزون على تلك الأشجار بسرعة بلا تردد، كان الفرسان الخاصون بعلية القوم هناك يحملون الكثير من الأشياء فأغاظه ذلك، هبط إلى جيليان وحمل عنه كل الأغراض التي كانت تثقل تحركه وتبطئه، وهنا انطلق جيليان يصيح بالرجل إن إحدى الأفاعي تختبئ تحت الماء على مقربة وعليهم أن يستعدوا كي يمسكوا بها قبل أن تعتصر أحداً فيهم.

كان خوليوس على معرفة جيدة بكل الضواري والمفترسات في المنطقة التي كبر وعاش فيها، ولهذا فهو يعرف ماذا تستطيع تلك الأفعى القيام به وحينما تحرش بها أحدهم عبر رمي قطعة في الماء تحركت فجأة بحيث ظهر جسدها الطويل المتلوي تحت مياه طينية عميقة، وهجم اثنان على رأسها ولكنها بدأت تطوح بهما يميناً ويساراً، لم ينتظر خوليوس ألبتة وتحرك إليها في ثبات ليفعل شيئاً، سمع جيليان يصيح به:

– حسبك لا تتحرك دون أن أمنحك الإذن.

– سيدي يمكنني القضاء عليها بسهولة.

– صاح به أحدهم لا نريد أن نقتلها إن لم نضطر لذلك؟ لذا لا تتعجل.

أجابه خوليوس:

– لماذا؟ هي أفعى ضارة في جميع الأحوال يجب التخلص منها.

صاح به جيليان بدون تردد:

– إياك والرد على الأكبر منك بهذا الأسلوب غير الحضاري.

زفر خوليوس، هو لا يفعل شيئاً يعجب هذا الآنكا أبداً.

لم يزل الرجال يناورون معها حتى استطاع أحدهم أن يربطها

جيداً إلى شجرة بحبلٍ قوي قاس، وهذه كانت طريقتهم فتظل مربوطة في الشجرة حتى ينهوا صيدهم ثم يفكون وثاقها حينما ينتهون، فتذهب في الماء وتكمل حياتها.

لم يفهم خوليوس الأسباب لجعل شيء كهذا يعيش، لكنه التزم الصمت لأن سيد جيليان كاد يفتك به.

الآن غاص البعض منهم في الماء وبدأوا في صيد الأسماك، بينما تتقافز من فوقهم قرود الفواكه وتصدر نداءاتها العالية ويردد معهم بعض الشبان المراهقين في مجموعة الصيادين هذه النداءات في مرح وانسجام، لم يفهم جيليان البشر ولكنه بقي كما هو منتظرًا أي تعليمات من السيد جيليان.

لم يسمح له بفعل الكثير أثناء ذلك النهار، وكان تقريباً يقف في المكان بلا فائدة، فكل ما يفعله أو يقوله يثير غضب جيليان أو الرجال الآخرين، تجمعت الغيوم بطريقة مروعة في المكان وبدأت أصوات الرعود تأتي من بعيد، فقال جيليان لجماعته:

– هيا يا رفاق لنحصي عدد الأسماك إن لم تكف فسأرسل بخوليو المعتد كي يقوم باصطياد ثعلَبي ماء مع أحد الفرسان هنا، وعلينا أن نعود قبل أن يخرج الياغوار من جحره باحث عن ضحية حجزها المطر عن الهروب.

اصطادوا أسماكاً هائلة الحجم صيادة بارعة ولكنها شرسة بالكاد يسهل اقتناصها، أسماك القرد سميت كذلك لأن وجهها يشبه وجه القرود الأمازونية، كما أنها تقفز من الماء لمترين فتصيد أي شيء يكون قريبًا من سطح الماء.

رفع أحد الرجال على كتفه سبعة منها وقال:

– سيدي الآنكا، لدي سبع سمكات، لن تكفي الجميع، إن النساء الآن يجهزن كوخاً جديداً كي نزوج رومير غداً، الجميع في حاجة الطعام الوفير اليوم.

خفض ذلك الرومير الذي يبلغ من العمر ٣٠ عاما وجهه في خفر واحترام.

قال أحد الفرسان، يبدو مريب المظهر:

– سوف أذهب مع خوليو المعتد إلى الغدران حول النهر حيث يلعب ثعالب الماء العملاقة، سوف أحضر اثنين وأعتقد أنهما سيكفيان الجميع هنا.

هز جيليان رأسه في موافقة ونهض خوليوس ممتنًا في داخله لهذه الفرصة:

– حسنا أنا مستعدٌ لذلك.

عاد الجميع إلى حيث موقع مدينتهم المعلقة بينما جيليان يحمل مع الرجال أدواتهم وعدتهم ويتأكد أنهم لم يتركوا أحداً خلفهم وهو يقول:

– اسمعني يا بني!

زمجر الرعد بقوة جزلاً وبرقت عينا جيليان في وجه خوليوس حيث لمع بهما البرق الخاطف:

– سوف تذهب مع فالدو إلى حيث الثعالب، وأرجو أن تتبع تعليماته هو أقدم منك هنا، إياك والتصرف من تلقاء نفسك، حينها عد من حيث أتيت، لسنا في حاجة من لا يحب العمل مع الفريق.

– نعم سوف أفعل، أتمنى أن تصلوا بسلام.

– حسنًا كونا حاميي بعضكما البعض.

– بالتأكيد.

غادر الرجال الآن وكان صوت الرعد وكأنه يشق صمت الصباح الوقور بطريقة توقع القلوب في الطين، خوليوس ولأنه فراشة فهو معتاد على الهروب من الماء حالما يصل ولهذا لم يجرؤ على الإفصاح بذلك أمامهم، حيث إن المياه تفسد ترتيب المسحوق الملون على جناحيه الرقيقين وهو الذي يعينه على الطيران.

فقال وهو يستدير إلى فالدو:

– حسنًا هل سنعبر من الأغصان، أعتقد أنه الوضع الأنسب.

فرد فالدو جناحين من الجلد وكانا بلون بنيٍ داكن ثم ظهرت أذناه اللتان تشبهان أذني القطط وقال:

– أنا خفاش لا أخشى الطيران في المطر، إن كنت تخشى على جناحيك الجميلين من التعفر فالحق بي عبر الأغصان.

لم يعلم خوليوس أن فالدو خفاش، على الأقل فهم سر منظره المريب وملامحه الحادة جدًا.

– كلا ليس هذا ما قصدت، قال السيد جيليان إنه علينا أن نبقى معًا.

– تحدث عن نفسك، إنني صياد بارع هنا، وأعرف الكثير إلحق بي وتعلم.

استشاط خوليوس غضباً وفكر كيف يجرؤ هذا الغبي، يتصرف وكأنه أكثر دراية مني بأمور الغابة التي نشأنا عليها، لم أحب الثدييات يوماً ولن أفعل اليوم.

شعر بالإهانة ففتح جناحيه وحلق خلفه وكان رشيقًا جدًا، منحه فالدو نظرة ما معجبًا بهذا الطيران الجميل، ثم قال له:

– إن قطرة أو اثنتين ستكونان كافيتين لإغراقك يا رجل.

– لا تتدخل في ما هو ليس من شؤونك.

– كما تريد.

وأتبعها بضحكة ساخرة، كان خوليوس يكتم غضبه ولكنه فكر أنه سيغلبه في الصيد وحينئذ سوف نرى من الأفضل.

لكن المطر لم يكن رحيمًا إن كل قطرة وأخرى تنذر بالخطر، وتحتهم المخلوقات تهرب في كل مكان، حتى حيوان المدرع كان يفر إلى جوف الأشجار، والقرود توقفت عن المزاح والمرح، من لم يجرب هذه النهارات الصيفية في الأمازون لا يعرف حقاً ماذا يقاسي ساكنوها طوال الوقت.

تعب خوليوس من ثقل المياه على جناحيه وقال:

– أظن أنني سوف أذهب إلى ذلك الغصن.

قال فالدو:

– حاذر من الياغوار إنه يتربص بكل شيء هنا.

أجاب خوليوس وقد فقد تركيزه:

– حسنًا.. ولكن لا تبتعد بحيث لا أراك.

وهبط على غصن عال، ثم بدأ يحاول التقاط أنفاسه وهو يشعر بالسوء مفكراً، بلا شك أن هذا الوطواط سيخبر الآخرين عني، وعن ضعفي.

سمعه يناديه من بعيد وقد هبط على غصن آخر:

– حسنا لنأخذ الطريق عبر الأشجار، لنبقى معًا.

أغرقتهما المياه تمامًا وصارا يتقافزان هنا وهناك، حينما شعر خوليوس أن ثمة روحًا أخرى في المكان حولهم، فتوقف وصار ينظر من بين أهدابه المبللة، وهو يصيخ السمع عبر القطرات الهاطلة في كل مكان من حولهم.

سمع صوت أنينٍ ما، بحث حوله فلم يرَ شيئاً.

– خوليوس، ماذا هناك؟ إن الوقت غير مناسب كي تصاب بالدوار، علينا أن نحضر طعاماً في الحال للجميع.

– ثمة شيء يا رجل ليس على ما يرام!

– ماذا تقصد؟

تأمل خوليوس وقد قطب حاجيبه الجميلين ثم همس:

– ثمَ شعور لدي بأن روحًا ما معذبة هنا ولا أعلم أين يمكن أن تكون، هل تشعر بذات الشعور؟

أصابت فالدو الدهشة التامة، ظل يحدق في وجه خوليوس الذي لا يزال يشعر بقلبه أين يمكنه أن يجد هذه الروح..

همس فالدو:

– أقسم لك إنني لم أشعر بشيء كما تقول، إنني أسمع مـا دون الأصوات ولكنني لا أسمع شيئًا الآن، هل أنت متأكد؟

– نعم هذا الشيء لا يصدر صوتًا بحنجرته ولكن قلبه يـئن في وجعٍ حقيقي.

– أنت بلا شيء غريب، لم أسمع بشيء كهذا قط.

أشار خوليوس بيده:

– هناك أعتقد أنه إما طفل لحيوان أو إنسان لا أعلم، سـوف أذهب لأرى.

– لن أتركك وحدك.. لنذهب معًا.

– هذا أفضل.

تحركا عبر الأغصان المتشابكة حينما وصلا إلى مكـان طـيني، وهناك لاحظ فالدو وجود طفلٍ ربما في الثالثة من عمره منطويًا على نفسه وقد جرحت قدمه أو أن ثمة ما هجم عليها، ولاحظ أنه يحـدق بعينين مرتعبتين صوب نقطة هناك لا يحيد عنها.

توقف في ذهول وهمس:

– خوليوس، لقد صدق حدسك، يوجد طفل هنا، وأعتقـــد أن ثمة ما يهاجمه..

لم يتردد خوليوس بل هبط على الفور وصار أمام الطفل، تفحص المكان بسرعة من حوله حينما لاحظ وجود ياغوار يجلس على مقربة يقيم الوضع قبل أن يهجم من جديد، وفكر خوليوس، كيف يُتَـــرك صبي لوحده في وضعٍ خطرا جداً كهذا.

همس له وهو يحاول حمله قبل أن يهجم الياغوار المرقط:

– أين ماما؟

كان الصبي مرتعبًا حتى من مظهر خوليوس، فبعض الأطفـــال لم يعتادوا بعض على جنس الفرسان هذا؟

حمله على كتفيه، هنا حاول الياغوار أن يهجم ولكن خوليوس لم يتردد أن يصيح:

– ابتعد واصطد لنفسك شيئًا آخر.

لم يتردد الياغوار أن يهجم بقوة ولكن فالدو ظهـــر في وجهـــه فجأة فأرعبه للحظة قبل أن يمزق وجهه بالمخالب وحينها فر الياغوار مهددًا بالعودة.

كان الصبي يخفي وجهه ويبكي بعنف في صدر خوليوس الحائر في أمره.

نظر فالدو إلى خوليوس وهو مذهول:

– لقد ظننتك طري العود في الحقيقة، ولكنك قوي وجسور، أنت لا تخشى شيئًا، حتى إنك لم تقيم الوضع قبل الهجوم، كان من الممكن أن يكون هنالك ياغوار آخر مختبئ.

– هذا مستحيل فالياغوار يحب الانفراد بنفسه في ساحة خاصة به وهو وإن تقابل بواحد آخر من ذات نوعه فإنه سيقتله على الفور.

– نعم أنت محق، إنهم يقسمون أنفسهم على المساحات في هذه الغابة المظلمة.

– حسنًا ماذا عن هذا الشيء، إنه يرتعد، كيف يترك هنا؟

– ربما فُقد من أهله، أعتقد لا بد أن يكونوا على مقربة وهنا يأتي دوري، سوف أصيخ السمع قد أسمع صوت أناس ينادونه.

طار إلى الأعلى وبقي يدور في المكان، بينما الياغوار قد عاد وهو يدور في حلقات حولهم مما جعل خوليوس يحمل الصبي ويطير به إلى غصنٍ آخر مفكراً يجب أن نجد أهله على الفور وفي أسرع وقت.

سمع صفير من فالدو فالتفت إليه وسمعه يقول:

– هي، هناك هيا بنا.

طار به الآن والصبي يبكي بحدة وجسده لا يقدر على هذا الوضع غير الطبيعي ألبتة.

كانت هنالك مجموعة من الجامعيين، وهم أناس لا يصطادون ولكنهم نباتيون فيأكلون ما تلقي به الأشجار من خيراتها ويأكلون ما تيسر لهم، كانوا يجلسون وسلالهم ملأى، بينما تبكي أمٌ على ابنها والرجال ينادونه هنا وهناك بحذر.

أخفى فالدو أذنيه وجناحيه ثم هبط من خلف إحدى الأشجار وظهر من خلفها يرفع يديه في علامة السلام والأمان.

رفع بعض الرجال عصيهم التي تنتهي بحراب حادة، قال:

– لقد وجدنا أنا وصديقي هنا طفلاً ضائعًا، شعره بني وعيناه كذلك هل هو يخصكم؟

نهضت امرأة مكلومة وصاحت:

– هل أنت جاد، أين هو؟

هنا نزل خوليوس أمامهم دون الاعتبار إلى كونهم ربما لم يكونوا قد رأوا مثله من قبل، مسح فالدو وجهه بكفه مفكرًا:

– خوليوس لا أخلاق ألبتة.

ارتاع الناس ورفعوا حرابهم أكثر حينما رأوا ابنهم بين يديه القويتين، بينا تعلو وجهه العكر المزاج تلك التقطيبة الحمقاء.

صاح الرجال بأصوات الاستعداد حينما لوح فالدو:

– كلا كلا، هذا هو صديقي، هو من وجده في الأساس، إنه فارس الآنكا الأول هنا.

خفضوا حرابهم وظهر عليهم الاحترام، قال قائدهم كما يبدو:

– نحن نسمع بالآنكا لكننا لم نره قط، وأن نرى أحدًا من رعيته، هذا مشرف لنا.

تقدمت المرأة تمد يدها كي تأخذ بولدها وحينما منحها إياه خوليوس، تساقطت دموعها وغسلها المطر على الفور:

– شكراً لك يا بني، أتمنى أن يوفقك المولى، إنك رجلٌ صالح.

لم يقل له أحد إنه صالح، وشعر بسعادة غريبة تعمر قلبه، بقي يحدق بها بوجهه المقطب غير عالمٍ بما يجب عليه أن يقوله، شده فالدو يجيب عوضًا عنه:

– إننا نحن الممتنون، إن الآنكا العظيم، هو من يقدم خدماته لسكان الأمازون الكرماء، لا تنسوا هذا.

قال خوليوس كمحاولة منه أن يبدو محترفاً مثل فالدو في الحديث:

– نعم، نحن الممتنون، من الجيد أنه نجى قبل أن...

وضع فالدو يده على فم خوليوس وقال:

– قبل أن يَضِل في الغابة ويحل المساء..

ثم أشار بعينيه لخوليوس أن يتوقف عن الحديث، ففعل دون العلم بالأسباب.

قدم لهم الشبان بعض الفواكه وفرح بها وطواط الفاكهة بحماس، لكن المرأة أمسكت بيد خوليوس قبل أن يغادر ونزعت عن جيدها عقدًا صنع من الأصداف محوطة بخيط من الحرير، لفته حول زنده وقالت وقلبها يطلق شرارات من الحب والامتنان الكبيرين:

– إن هذا الصبي هو كل ما حصلت عليه من هذه الدنيا، فقد عشت دهرًا بدون أن أنجب، وأن تعيده إليَّ، لا أجد الكلمات المناسبة لك، ولهذا، أقبل بهذا العقد الخاص بي لأنك عطوفٌ ورحيمٌ من حيث لا تدري، فقد تكون تحمل ملامح جافة ولكنك في الواقع رجل جسور حقيقي، أتمنى لك حياة كريمة مثلك.

اهتز قلب خوليوس لما يسمع وشعر أنه فعل شيئًا مفيدًا عظيمًا، فأشاح بوجهه ليخفي تقلبات مشاعره وتعاقبها لفرحته الشديدة، فتبسم فالدو وقال:

– وأنت شاب خجول أيضًا، من كان ليتصور.

– لست خجولاً، هيا بنا، إن الثعالب ستفر إلى جحورها ولن نستطيع حتى الحصول على أي واحدٍ منها.

– نعم أنت محق هيا بنا.

طارا من جديد وحينما وصلا إلى حيث الثعالب كانت تجد في العودة إلى جحورها، وهناك ترك خوليوس لفالدو أن يقوم بالصيد، ليتعلم منه الطريقة الفضلي للقيام بذلك.

وبالفعل حصل فالدو على اثنين متوسطي الحجم، كانا ثقيلين وقال فالدو منادياً خوليوس:

– هيا أيها المعتد، احمل أحدهما كي نستطيع الذهاب باكرًا.

فعل خوليوس ما أُمر، وعادا إلى حيث المدينة ولكن الياغوار المتضرر كان يلحق بهما بخفاء عبر الأغصان، إنه لم يسامح ذلك الفراش الذي غدر به، ونزع منه طعامه قسرًا.

كان خوليوس يتلفت حوله في طريق العودة، لاحظه فالدو فقال:

– ماذا الآن، اسمعني لم يعد هنالك وقت من أجل إنقاذ الآخرين.

– كلا ليس هذا ولكن... لا أعلم.

كان يشعر بخطوات شر مقتربة ولكنه لا يعلم أين مصدرها.

وصلا إلى المدينة بسلام وفرح الجميع بالصيد الذي يحملانه ولاحظوا أيضاً الهدية على زند خوليوس، لم يتردد الوطواط المحب للثرثرة وهو يقدم الفواكه لسيد جيليان بأن يحكي ما حصل من الفارس الفراش الذهبي الذي يقف على مبعدة يرفع ذات التقطيبة ومتظاهراً بأنهم لا يتحدثون عنه الآن.

بعد أن انتهى فالدو من القصة، منح خوليوس سلة الفواكه وقال:

– السيد يقول وزع الفواكه بالتساوى على الجميع، ابدأ بالأطفال أولاً.

هز خوليوس رأسه وكان مسرورًا جدًا، حيث إن جيليان يمنحه نظرات جديدة وكأنه يقول بلسان الحال:

– أحسنت صنعاً.

بقي ذلك اليوم يحصل على هدايا غريبة من أطفال المدينة، كان يأخذها ويضعها في لفافة إزاره وهو لا يعلم ماذا عليه أن يفعل بها.

في نهاية اليوم كان قد جلس مع جيليان وخطط معه جدول الغد حيث سوف يذهبون إلى إحدى القنوات التي فاضت على أهاليها كما أخبر بعض النسور التي تتخصص في إحضار الأخبار الطارئة من أرجاء معمورة الأمازون، سوف ينهضون في وقت باكر في الغد كي يتجهوا إلى تلك المنطقة ويقدموا المساعدات والمعونات.

بعد أن أنهى خوليوس كتابة ذلك كله، استعد كي يغادر كوخ السيد جيليان ولكن الأخير أشار له بالبقاء قليلاً.

كان الجو قد أصبح بارداً جداً ولكن داخل هذه الأكـــواخ لا يوجد سوى الدفء والرخاء، جلس خوليوس من جديـــد ثم وضـــع اللفافات من يديه.

قال جيليان وعيناه الفضيتان تلمعان بشكلٍ غريب:

– لقد سمعت أنك كنت تستعمل صوت قلبك للاســـتماع إلى المحيطين بك، فهل هذا ما حدث اليوم مع الصبي الضائع؟

ارتعب خوليوس ولكنه قال بصوت هادئ:

– نعم لقد شعرت بوجوده مع أنه لم يكن يصدر صوتًا أو يبكي ولكنني شعرت بقلبه يئن وجعًا وفزعًا.

لم يقاطعه جيليان، فأكمل الشاب:

– لا أعلم فقط شعرت به، أظن أنني مصاب بشيء ما فالدو لم يحس بشيءٍ ألبتة.

هنا قال جيليان بجدية:

– بل أنت شاب موهوب من حيث لا تعلم، هل سمعت صوت الصبي يناديك؟

– نعم بكل وضوح.

إذن بعد عملنا غداً لدي ما أحدثك به، يمكنك المغادرة الآن.

– سيدي، هل ما فعلته جيد أم سيئ؟

– سنتحدث في هذا لاحقا.

نهض خوليوس وغادر إلى حجرته الصغيرة في القسم العلوي، وضع الهدايا الغريبة جدًا في صندوق، ولاحظ أنه مسرور في داخله، لقد فعل شيئًا كبيراً اليوم، مع أنه لم يفكر بالأمر إلا أنه حصل وحسب.

استلقى على الفراش وبقي يحدق في اليراعات تدور داخل الدورق الزجاجي، مفكراً:

– لم شعرت بذلك الصبي، مع أنني لم أسمع صوته؟ هل هذا طبيعي؟

لكنه في النهاية خلد لنوم وشيء ما قد عثر على مكانه فبقي يتربص له طوال الليل.

كانت الحالة مزرية حول منطقة الفيضان منذ شهرين الآن، غرقت الكثير من البيوت الطينية، وغمر الماء كل شيء تقريباً في تلك الناحية المصابة، كان الناس يعانون الجوع والبرد، الأمطار لم تتوقف

ولكن لا يوجد سبيل لإنقاذ المكان خلا التوحد والعمل المستمر.

كان خوليوس قد اعتاد الخروج في فرقة الإنقاذ كل يوم منذ مدة الآن ولينقذ المتضررون من الفيضان على جانبي النهر، في هذه اللحظة كان يطير على السطح وكلما وجد شخصًا أو شيئًا حمله وأخرجه للبابسة، صحيح أن الفرسان كلهم كانوا يعملون بجهد ومثابرة على إنقاذ الأرواح، ولكن تميز خوليوس بسرعته ورشاقته فوق سطح الماء، كان منظره يخلب الألباب والكثيرون مندهشون من سرعته، وبالقليل من الإشارات من السيد جيليان كان يتحرك ويعرف أين يتجه لإخراج أكبر قدر من الحيوانات المحتجزة أو المصابة.

كان الوضع قد استتب إلى حدٍ ما، فطلب منه جيليان أن يأخذ قسطًا من الراحة.

أخذ لنفسه ناحية وجلس على شجرة بعيدة قليلاً كي يلتقط أنفاسه، إننا نعمل كل يوم والكثيرون يقولون إن أبناءهم أو أعزاءهم لا يزالون مفقودين، يعول الكثير على قدراتي فوق السمعية كي أجد المفقودين، ولكنني حقاً وصدقاً عاجز عن الشعور بالآخرين أكثر مما أفعله الآن، فأنا مرهق تمامًا.

obeikandl.com

الفصل الثاني عشر

حقيقتي

كان يغط في غفوة مفاجئة لم يشعر بها وهي تغزوه، ولم يشعر أيضًا بنفسه وهو يسحب سحباً من فوق الشجرة ويجر إلى مثواه الأخير، كانت رائحة الطين القريبة جداً من أنفه هي ما أيقظته، فاستيقظ ليرى ما الذي يجري حوله حينما لاحظ أنه في فم الياغوار يجره الآن بقوة وعزم إلى المجهول، نهض وحاول الفرار ولكن الياغوار غرس أنيابه بقوة في بطنه ليجعله يعاني تماماً، حاول خوليوس أن يبقى يقظاً، إلا أنه لم يستطع، فقد سال الكثير من الدماء الآن وبدأ مرحلة من فقدان الوعي، صار يهذي بصوت خافت:

obeikandl.com

– سيد جيليان، إنني أموت...أشكرك على منحي الفرصة للعمل معك.

فقد الدماء والياغوار يجره بكل إصرار ما كان ضعفه الآن إلا بسبب الساعات الطويلة التي قضاها يحمل الناس على كتفيه ويخرجهم من الماء، منذ أول خيوط الفجر، لمدة أسابيع، وبطريقة ما لم يتبق لديه أية قوى للمقاومة، فأضحى سقيماً بين يدي الياغوار المترصد، أغمض الشاب عينيه يسلم الروح وشعوره بالمغادرة من هنا يزداد ضراوة حتى سمع صوتاً في عقله:

– خوليوس، خوليوس، أين أنت؟

همس بصوته الخافت:

– لا أعلم سيدي، لكن شكراً على الفرصة التي منحتني إياها...

كان الصوت مصراً وهو يجيب:

– بُني، هل أنت بخير؟ لم تحدثني حديث مودع؟ حاول أن تحدد مكانك.

لم يعد خوليوس يسمعه بعد ذلك، كم كان مقتنعًا بأنه قدم أفضل ما لديه، فهو لم يكن قادراً أن يشارك بنفس القوة والبأس الذي كان بقية الفرسان يعملون به، فهم أشداء أقوياء، ما الذي سيغيره موتي، لن يفتقدني أحد فلا أحد يحبني من الأساس.

كان هذا الحديث الخاص بخوليوس فهو لا يشرك أحدًا في حقيقة أنه يرى نفسه غير جدير بشيء، والآن مع هذه اللحظة التي يرى فيها موته محتومًا لم يعد يبالي كثيرًا بما قد يحصل له، فهو في جميع الأحوال لم يكن شخصًا محبوبًا من الجميع.

شعر فجأة بماء يهراق عليه مما جعله يرفع رأسه كي يلتقط أنفاسه، وحينما فتح عينيه، صدم برؤية وجه فالدو يحدق به في غضب، حمله فالدو وسار به وهو يعترض:

كيف يقتنصك ذلك الياغوار الخبيث دون أن تشعر به، كيف يحصل لك أنت مع قدراتك المميزة أمر كهذا؟

كان قد استطاع التوصل إلى مكانه، من تعليمات الآنكا، ومن ثم انتزعه من فم الياغوار قبل أن يلتهمه بلحظات.

كان خوليوس يحاول أن يقول شيئاً ولكنه لم يستطع النطق من شدة الإرهاق، فصمت وظل عنده يمسح دموعه ويتحاشى النظر إلى فالدو كي لا يراها فيسخر منه، تظاهر فالدو حينها أنه لا يرى شيئاً، مانحاً إياه خصوصيته.

حينما انتهى الطبيب من تضميد جراحه الغائرة، بدا خوليوس أكثر ضعفاً، وكأنه يحارب للبقاء حياً، أخبره الطبيب أن يحاول أن يتناول الحساء الخاص بالعلاج كي يرمم جسده بأسرع فرصة ممكنة

ولكنه كان مسْتلقيًا عنده في الكوخ الخاص به، فوق الحشية الدافئة الخضراء ويشعر أنه انتهى، لقد انتهى.

كان يرقد كما هو يحدق في السقف، الجميع هناك يحاربون من أجل إنقاذ الأرواح وأنا هنا مثل المساجين أرقد في تراخ بينما الفرسان يمرون بالمخاطر، رباه ماذا علي أن أفعل أكثر لأصبح مثلهم.

كان الجوع يمزقه ولكنه يرفض أكل أي شيء، كان يدعو أنه حينما ينام ألا يستيقظ أبدًا، لا بد أن الآنكا سوف يطرده بمجرد أن يتعافى لقد كان الاتفاق بينهما شهرًا وهو الآن يعمل منذ أكثر من ذلك، ولكن السيد جيليان لم يخبره بعد بالمغادرة ولهذا فهو لن يغادر ما لم يطلب منه ذلك، كان يصحو كل يومٍ وقد وقر في قلبه أن هذا اليوم سيكون اليوم الذي يطرد فيه، لكن يمر اليوم وينقضي ويخطط معه جيليان لليوم الذي يليه دون أن يأتي على ذكر انتهاء المدة المحددة وقرب موعد مغادرته النهائية، كره خوليوس أن يعترف أنه اعتاد على الحياة هنا، وعلى العمل في معية الآنكا العظيم الذي ملأ الأمازون الكبير بالعدل والمساواة والسلام.

كيف يمكن له أن يظن للحظة أن العمل في مكان آخر سيكون خيراً له، هراء، لا يوجد مكان مثل هذا لا يوجد، الدفء النفسي الذي تعلمه مع السيد جيليان شيء لم يتعرف إليه في سني حياته الماضية ولم يعرف له طعماً، الوجود مع الآخرين دافئ.

أغمض عينيه فقد غدر به الكرى وسلبه وعيه، وجد جيليـــان نفسه يجلس على تلة عالية ومن تحته أناس كثر يحاولون التحدث إليه، بينما يبدو حجمه صغيراً جداً مقارنة بهم، كان يريد أن يفهم لم هو في هذا المكان العالي الموحش حيث لا أحد هنا، المكان صغير لا يكفي إلا له ليجلس فيه، وليس هذا فحسب بل كان الهواء بارداً جداً، ويبدو نوعاً ما مظلماً.

صاح من عنده :

– لم لا تنزلوني معكم، لا أحب المكان هنا، إنه بارد موحش؟

أجابه صوت ما:

– أنت وضعت نفسك هنا فلم تعترض الآن؟

تلفت حوله في ذعر وشعر أن هذا صوت مألوف لديه:

– من أنت؟

– كيف لا تعرفني يا هذا؟

– أنا لم أحضر نفسي هنا، لقد وجدت نفسي في هذا المكان.

– إنه اختيارك، أن تكون الأفضل مع نية أن يكون الآخـــرون أقل منك، استمتع إذن بما اخترت لنفسك.

بقي خوليوس يتلفت حوله وهمس:

– صوتك مألوفٌ لي.

وجد حبلاً يتزل من الغيوم، وكان حبلاً قويا مد يده وحاول الإمساك به، إلا أن الحبل صار شائكاً.

لكن خوليوس تبادر إلى ذهنه أنه يستطيع الطيران فلم لم يجرب أن يفر من هنا، ولهذا جرب أن يفتح جناحيه فلم يجدهما، مما أفزعه تمامًا، ليس لدي جناحان لأطير من هنا؟ وهذا الحبل شائك سوف يؤلمني.

كان الناس تحته منشغلين بأنفسهم وببعضهم البعض، فلم يكن أحدٌ قادرًا على سماعه، أغرقت الوحدة عينيه في دموعهما ثم رفع عينيه لا يوجد طريق للفرار من هنا إلا عبر الصعود إلى الأعلى، ولكنني حتما سأصبح أبعد عن الآخرين، هذا مؤلم، مد يده ثم أمسك بالحبل الذي شاكه على الفور ولكنه لم يظل يعترض كثيراً بل بدأ في التسلق، كانت الدماء تسيل منه ولكنه لم يعد يهتم فقد آلمه بقاؤه هناك في الوحدة والمكان صغيرٌ وغير مريح.

حينما صعد لم يجد بعد الغيوم إلا المدينة التي يعمل فيها الآن، وهناك في المنتصف الكثير من الناس وحولهم أطفالهم يجلسون وهم يحملون جواهر ذهبية مثل الكريستال البراق، وكلما مر بأحدٍ منهم منحه إياها، لم يفهم قط ما يراه ولكنه كان كلما أمسك بواحدة منها تحولت إلى جزء من جناحه، حتى أصبح لديه جناحان هائلا الحجم جميلان لا يحلم بمثلهما.

كان يسير في تعجب مما يرى، أين هو؟ خرج من المدينة الهائلة التي صدمه أنه رأى كل شخص عرفه فيها خلال الثلاثة الأشهر الماضية، وهي المدة التي عاشها فيها دون أن يعلم، قابله كوخه الذي عاش فيه معظم أيام حياته منذ الطفولة والدراسة كان خليطًا من كوخه القديم والكوخ الجديد الذي يعيش فيه الآن، حدق داخله ليجد بيضة كبيرة، إلا أنها محوطة بالحشائش القديمة وبيوت العناكب تنسج حول أغصانها الجافة المقززة، كان منظر المكان مثيرًا للقشعريرة وكان يبدو عليه القِدم، ولج إليه وهابه حجم تلك البيضة فهي أكبر منه بثلاثة أضعاف، شعر بالخوف مما يرى، أين أنا؟

بقي يدور حولها متسائلاً عن كنهها؟ حينما سمع صوتًا خلفه يقول:

– ألن تحاول أن تساعد نفسك قليلاً لتحيا يا بني.

التفت خلفه وأصابه الوجوم الكامل حينما رأى، ولصدمته من وجه السيد جيليان يحدق به وقد كان يقف في المكان ذاته يحمل فانوسًا جميلاً ليضيء به طريقه، شعر بالحنين لأيام العمل معه وقال:

– سيدي، إنني آسف، لكنني لا أعرف ما الذي أحضرني إلى هنا، أين نحن؟

اقترب منه السيد جيليان وقال بصوت خافت أرعبه:

– إننا في عقلك، ومن الواضح أنك أهملته كثيراً، ألق نظرة على بيضة قلبك، لم غلفتها بكل هذه الترهات.

لم يفهم خوليوس لم يقال له إنهما في عقله، ولكنه قدَر أنه يحلم وربما هذه إحدى علامات الموت، شعر بالحزن وقال:

– لا أفهم ما تقوله سيدي!.

– بُني، إننا نتجول في عقلك هذا منذ مدة وكل ما فيه يعد منطقيًا حتى وصلت إلى هنا فأنا لم أفهم لمَ لديك هذا الجانب، ما أفضل قدراتك أخبرني؟

– أنا، إنني أعمل بسرعة، كاتب ممتاز ومخطط بارع.

بمجرد أن قال ذلك بثقة واقتناع حتى وجد قلمًا في يده، وساعة جيب في يده الأخرى:

– ما هذا؟

– إنها أسلحتك في هذه الدنيا، التعامل مع الوقت بدقة، والكتابة لتخطيط كل شيء، هذا هو أنت يا بُني، اذهب إلى تلك البيضة ونظفها من كل ما يشوبها فهذا لا يليق بك؟

– ما هذه البيضة على أية حال؟

لم يجبه جيليان مانحًا إياه الفرصة ليكتشف بنفسه، اقترب

خوليوس من البيضة وبدأ يلاحظ أن أوراق الحشائش ليست أكثر من كلمات قديمة مهترئة منسوجة معاً لتغلفها بإحكام، وقرأ:

– أنا قصير، أنا غير كفء، إنني غير جدير بالاهتمام، غير جدير بأن أُحَب، سأعيش وحيدًا، سأكون ضعيفًا.

تراجع للوارء، رباه رباه، ازدادت نبضات قلبه بقوة وبشدة، شعر أن الجميع ينظرون إلى حقيقته، سيسخر منه الجميع، رأى خيالات لأناس لا يتذكرهم ولكن أسنانهم تظهر من الظلام حيث يبدو بجلاء أنهم يسخرون منه، حاول إخفاء المكان وبحث عن أي شيء ليخفي عن عيني معلمه جيليان قبح حقيقته، ماذا؟ كيف وصلت إلى هذا المكان، هذا ما أحدث به نفسي طوال الوقت، لكن لا أحد يعرف ذلك، إنني ها هنا مكشوف مثل قرص الشمس.

قال جيليان:

– لم أكن أعلم أنك تحتقر نفسك هكذا برغم الغرور الذي يملؤك طوال الوقت.

توقف خوليوس عن محاولة إخفاء الحقيقة وكم احمر وجهه، ها قد افتضح أمره ثم جلس منهكاً مجيباً بيأس:

– أعلم أنك سوف تتخلص مني في أقرب فرصة، وأعلم أن عملي لم يكن على قدر التوقعات، لقد رأيت فرسانكم وما هم

قادرون على القيام به، إنهم رجال أشداء وخلقت ضعيف البنية وصغير الحجم، لم أستطع التخلص من شعوري بقلة المصادر والقدرات أثناء الأيام الماضية لم أكن مفيدًا لك قط.

شعر بيد جيليان تربت على كتفه فرفع عينيه وكان يشعر بأنه بات عاري المشاعر وكل هذا القبح ينضح أمام عيني معلمه، لا بد أنه يشعر بالقرف منه الآن.

قال جيليان له بصوت دافئ وقور:

– انهض وانفض عنك هذا الهزال والوهن، كيف ترى نفسك ضعيفاً وقد كان لحجمك الصغير هذا أكبر الأثر في العثور على كل الأطفال الممرغين في الطين وتحت الركام، كيف تستهين بقدراتك العقلية، كنت قادراً على تحديد موقع كل حيوان بريء، وإنسان ضائع خلال الأشهر الماضية، لم يكن أحدنا قادرًا على مجاراتك يا بني، منحك الله قلماً صلباً يمكنه أن يخطط بشكلٍ ممتاز ومعًا صنعنا نجاحًا عظيمًا في مدة قصيرة.

حدق خوليوس في وجه جيليان لا يصدق أنه يقول هذا عنه، همس بصوت مرتجف:

– أنا أنقذت آخرين؟! ومنذ أشهر؟ كيف؟ لكنني كنت أتبع أوامرك وحسب تعليماتك أتحرك، لم أفعل شيئًا من لدني.

أمسك جيليان بخوليوس من تلابيبه ثم أوقفه عنوة، بالرغم منه رفع يده الممسكة بالقلم وقال:

– هذا هو دواؤك ضد دائك، هيا ومزق تلك البيوت والأقذار عن قلبك ولتلقِ بها في أبعد مكان، تحرك.

استدار خوليوس إلى حيث البيضة الكبيرة، ولاحظ أنها تحاول أن تضيء إلا أن ما حولها يمنعها، فتقدم وقد غلف قلبه شعورٌ بالسلام لا يفهم له سبباً، مد بالقلم إلى أحد الأغصان وكتب عليه ببساطة:

– أنا أنقذت الكثير من الناس في هذه المدة، والكثيرون يعيشون بسلام لأنني وجدتهم.

ذاب الغصن وذابت معه بقية الأغصان، لدهشته اختفت العناكب من تلقاء نفسها وحتى الوجوه الخفية التي تترائى له وهي تضحك اختفت هي الأخرى، بقي مكانه ينظر في ذهول إلى البيضة الهائلة الحجم، اقترب منها فقد أصبحت شفافة وصارت تنبض بالضوء الأصفر بطريقة متواترة وهو يشعر في كل لحظة من ذلك أنه أفضل، وأنه أحسن، وأنه بخير، حتى تفتحت من تلقاء نفسها.

سقط على الأرض حيث أوقف كيانه ما خرج منها، كان يقف من جوفها هو، لكنه كان قوياً جداً، جسده ممشوق، شعره مجدول خلف كتفيه، ولديه جناحان عظيمان، عيناه تنمان عن القوة والصرامة الكاملة، والوضوح والذكاء.

مد القلم الذي يمسك به خوليوس الجالس خارجها وهمس بصوت خافت:

– هيا تعال، دعنا نتحد.

لم يشعر خوليوس بنفسه وهو ينهض ويمد يده ليمسك بقلم الصورة الثانية منه، جذبه الآخر بقوة إليه وحينما وقع داخل البيضة، صارا يتوهجان معاً حتى ذابا وأصبحا شخصاً وأحداً.

فتح خوليوس عينيه الآن على أرض الواقع، سالت منه دمعتان وشعر أنه جديد، بل شعر أنه حي، التفت بالقرب منه ليجد السيد جيليان يجلس في وقار يحدق به وهو مبتسم.

لم يفهم، هل كنت في حلم أم ماذا؟ حاول الاعتدال فقال له جيليان:

– أرح بدنك، لقد أتعبناك خلال المدة الماضية.

قال خوليوس بصدق:

– كلا، لم أفعل الكثير سامحني.

وتذكر الحديث الذي دار في الحلم، ماذا؟ هل يعلم جيليان أننا تحدثنا في حقيقتي بكل صراحة، يا له من أمرٍ مُحرج.

كان فالدو يمسك بالحساء ويقول:

– هل ستأكل الآن أم ماذا؟

تبسم خوليوس ثم أخذ الإناء وصار يشرب، حينها قال جيليان:

– أنت تتساءل عما جرى في حلمك الغريب قبل لحظات أليس كذلك؟

رفع خوليوس عينيه وحدق في وجهه:

– ماذا؟!

تبسم فالدو وهو يقدم لخوليوس بعض الفواكه، بينما جيليان قال وهو يشتمل رداءه الدافئ حول كتفيه:

– دعني أخبرك شيئًا يا بُني عني وربما ستفهم ماذا حصل لك قبل لحظات.

هز خوليوس رأسه وهو يحاول التفهم، أكمل الآنكا الوقور:

– لطالما كانت لدي قدرات خاصة لم يملكها أحدٌ غيري، توارثت هذا من جدي، وأنا الوحيد في كل الأمازون القادر على العبور في عقول الآخرين، بكل سهولة وبدون أن يعرف أحد.

حدق به خوليوس.. إن هذا حتماً أمر لم أسمع به قط.

سمعه يقول:

– ومع هذه القدرات تأتي مهام أخرى، فأنا مسؤول تمامًا عن ما أفعله، فلا يحق لي أن أكشف عما أعرف في هذه العقول، وقد تعلمت

في سنٍ مبكرة كيف أستخدم هذه القدرات لعلاج الناس وليس لمذلتهم أو إهانتهم، وهكذا بدأت في تطبيب العقول المريضة، الحقيقة بسيطة في عقل الإنسان فكل شخص يسجن نفسه يا بني في سجن خاصٍ به هو يصنعه بنفسه أو يساهم في منح سلطة للآخرين فيصنعون له سجناً يحبسونه فيه، هو مكان غير مرئي يمكن له أن يدمرك دون أن تعرف.

خفض خوليوس عينيه متذكرًا أن جيليان وجده في تلك الحجرة الغريبة مع بيضة روحه البريئة التي حبسها هناك بنفسه ولم يجبره أحد آخر على ذلك.

كانت الليلة باردة وأصوات الحشرات الليلة تصدر أزيزًا في كل مكان، اليراعات المضيئة تتسكع على أفواه الأزهار والفطر الليلي المشع.

رفع عينيه محدقاً بخجل في عيني جيليان اللتين تلمعان بالفطنة فأكمل الأخير:

– وهكذا كان علي أن أجد فارسًا مناسبًا لي ليساعدني في القيام بهذه المهام خصوصًا أنني كبرت كما ترى ولم أعد قادرًا على التنقل بسهولة في أرجاء المدينة، لم يكن هنالك أي فارس قادر على تحمل قدراتي والبعض يفرون خوفاً من أن أكتشف شيئًا ما عنهم، أما البعض الآخر فيخافون من الفكرة ذاتها فيترددون في العمل هنا، حتى جاء قبلك إميليو.

تذكر خوليوس اسمه من الأوراق الموقعة بتواريخ قديمة، فقال:

– نعم أظن أنني قرأت اسمه في بعض ملفاتكم القديمة.

– نعم هو ذاك، كان شابًا قوي البنية وهو بومٌ مميز، حيث كان قلبه مثل سنا القمر، لا يحمل حقدًا على أحد ولا يهتم بنفسه كاهتمامه بالآخرين، وكونه طائر بوم، فقد كان يسمع كل ما يدور من حوله ولا يخبر أيًّا مما يسمع إلا في حال كان ذلك في منفعة للجميع، عملنا معًا ولكنه لم يكن يملك القدرة على الولوج في عقول الآخرين ولهذا اقتصر عمله على أن يحدد أماكن الضعف أو الألم في الشخص الذي نعالجه وأنا أقوم بالباقي، حتى مرض مرضًا لم نتمكن من علاجه وقضى نحبه في هذه الحجرة وقد أدى كل واجباته في أفضل صورة كانت، ومنذ ذلك الحين وأنا عاجز عن أن أجد شخصاً آخر ليساعدني في هذه المهمة الخاصة، إنني حاكم هذه المدينة ليس ليخدمني الآخرون، ولكن لأخدمهم أنا بكل ما أوتيت من علم وقوة.

كان خوليوس مشدوهاً مما يسمع، رباه.

قال جيليان بعد ذلك:

– حتى وجدتك، هل تعلم أنك الوحيد مِن مَن عرفت الذي رأيته يزورني في عقلي ويتحدث إلي، كي أنتظر منه أن يحقق النجاح؟ أنت.

شعر خوليوس بجسده يبرد فجأة، كيف؟ أزوره، ولكنني لا أتذكر.

سأل بذعر:

– لا أتذكر أنني فعلت ألبتة ذلك، كيف يحصل هذا دون علمٍ مني، لم أعرف أن لدي قدرات خارقة قط حتى سمعت صوت الصبي الضائع، حتى يومئذ لم أفهم ما الذي يحصل معي.

مد جيليان يده ثم ربت على يد خوليوس المرتعدة ثم همس:

– منحك المولى تميزًا حقيقيًا خاصًا بك، لا يمكنك بعد أن أتحدت مع روحك الحقيقية أن تعود إلى الطريقة غير السوية في التفكير في الآخرين أو في نفسك، والظن بأنك مميز بطريقة فوقية مع احتقار ذاتك خفية، القدرات العظيمة تأتي معها مهام حقيقية لا تحتمل المشاعر السوداء فهي قد تقتلها، أنت إن كنت في بداية حياتك مقتنعًا بما أعطاك المولى من جسد مناسب لك ولقدراتك لعرفت منذ زمنٍ طويل أنك مقدرٌ لأن تكون فراشًا جوالاً في عقول الآخرين لتحررها من سجونها الخاصة.

كان خوليوس غارقًا في دموعه، وبكى حالما أنهى جيليان جملته تلك، شعر أنه يتحرر مع كل دمعة تهطل من عينيه لتغسل روحه فتغسل قلبه، لقد دمر نفسه بنفسه وحَد قدراته الخارقة بتفكيره القذر

في نفسه وفي الآخرين، انشغل بما سيقوله الناس عنه ولم ينشغل في تطوير نفسه ومواهبه التي وهبت له دون غيره.

لديه أجنحة لا يراها، وقوة لا يشعر بها، كيف له أن يكون أعمى إلى هذا الحد، إلى هذا الحد البغيض، رفع عينيه وقال بصوت مرتجف:

– كيف يمكنني أن أتدارك نفسي سيد جيليان، لقد تهت لمدة طويلة، ولا أظن أنني قد أصبح ما تقوله.

قال جيليان كلمتين فقط جعلتاه ينتحب تماماً:

– سامح نفسك وحسب.

– سامحتها.

مضى على ذلك الحديث ساعتان وبعد أن هدأ خوليوس قال له جيليان بعد أن نهض كي يخلد لراحة هو الآخر:

– لتعلم أن شهرًا قد مضى مسبقًا وأعقبته أشهر، إن كنت أود أن أطلب منك الرحيل لكان هذا منذ زمن طويل، وليس بعد مرور كل هذه المدة، إن الناس هنا متعلقون فيك، يحبونك ويحترمونك، عليك أن تعرف أنني لا أستطيع أن أكسر قلوبهم.

لم يصدق خوليوس أن هذا الكلام يقال عنه.

تبسم له جيليان ثم قال:

– كُل جيدًا ونم، سوف أطمئن عليك في الصباح.

سأله خوليوس قبل أن يخرج:

– سيدي، ماذا كانت تلك البيضة إذن، أنا لم أفهمها؟

– إنها سريرتك، إنها نيتك الحقيقية وشيء لا يمكن لأحد أن يغيره لأنه حقيقي وعليه تقوم كل الأفعال والأقوال التي تقوم بها، وهي نظيفة نقية وقوية جدًا، حافظ عليها ولا تجعل شيئًا يفسدها.

غادر جيليان ثم استرخى خوليوس إلى الوراء على الحشية، لم يكن قلبه يهدأ كيف يحصل هذا كله في ليلة واحدة. أنا؟ جوال في العقول؟! أنا؟

شعر بالعار من نفسه كونه احتقر الناس الأقل منه كثيرًا بينما هو بنفسه كان الأضعف بين الجميع، لقد دمر نفسه حيثما لم يكن يتوقع، إنه لن يسمح لأحد أن يعيش ما عاشه داخل عقله، ولن يسمح لأحد أن يكون عدوًا لنفسه، ذلك هو الضياع الحقيقي.

مرت بعدها السنوات الطوال وقد ارتفع شأن خوليوس وتغير حاله تمامًا فلم يعد يشبه الخوليوس القديم في شيء قط.

ذاع صيت الفراش خوليوس وكبر جيليان في السن حتى أصبح خوليوس تقريبًا هو المسؤول عن العمل الخاص بينهما، وفي إحدى

الليالي مر على الغدير ليحضر منه بعض الماء كي يكون جاهزًا في الغد حينما رأى وجهه على صفحة الماء، من هذا؟

لم أنظر إلى وجهي منذ مدة طويلة، لقد تغير وجهي..

كان خوليوس الآن في الخامسة والأربعين من عمره، وقد اختفت كل آثار النعيم الذي عاش فيه قبل عمله هنا، وبدا متوحش المظهر قوي البنية داكن البشرة من كثرة التعرض لشمس، عيناه صارمتان، صوته حاسم، وقراراته واضحة وقلبه ثابت، كان مؤمنًا أننا نعيش من أجل هدف لنصل إليه، وغاية نضعها في الأرض من أجل الناس وهكذا، يخدم ويساعد الناس بعضهم البعض.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث عشر

رسالتي ورسالتك

كان الشبان في الغابة يحدقون في وجه خوليوس وقد أنهى حديثه، ثم جرع آخر ما تبقى في كوبه، منحهم نظرة جانبية وسخر من أعينهم المفتوحة عن آخرها، ثم قال:

– هل أنتم بخير؟

همس كارل بصوت متأثر جدًا:

– يا إلهي، كل هذا حدث معك، إننا أطفال أمام تجربة حياتك.

أيده الشابان الآخران.

obeikandl.com

كان الليل قد جَنَّ، وبدت الموجودات مثل الخيالات المبهمة، تمطى خوليوس قليلاً:

– هذا حقاً ما حدث، لم أصبح هكذا لأنني كنت لطيفاً مع نفسي، كان علي أن أتحرر من غرامي بذاتي وأن أنظر لمن حولي كنوع من التغير.

كان آدومان يحدق في خوليوس ولا يصدق أنه هو أيضًا يشعر بما يشعر به الآخرون، من عدم ثقة في الذات وما شابهها، فقال متسائلاً:

– ولكن سيدي كيف وصلت إلى هنا، نحن في عالم متحضر وأنت من الواضح أنك كنت تعيش في زمنٍ آخر، كيف وصلت إلينا؟

عاد الشابان الآخران للتركيز حينما قال خوليوس:

– حينما كان سيد جيليان كان يحتضر طلب مني أن أجد بديلاً لي على الفور، كان متأكدًا أن غابتنا لا يوجد فيها أحدٌ بهذه المواصفات، ولهذا علي أن أغادر زمننا وأن أتجول باحثًا عن شخص آخر قد يحمل هذه الصفات كي أمنحه رسالتي ويكمل طريقنا، وبهذا وجدت المؤسسة، وبسبب التقنيات صار سهلاً جدا أن أعمل على أكبر قدرٍ من الناس دون أن يضر ذلك بهم، وفي نهاية كل سنة وبدخول الخريف أدخل في سبات ما، ينقلني بشكلٍ تلقائي إلى بلادي

وهناك أستيقظ بعد مرور شهر على سباتي لأهتم بالمدينة وكل مشاكلها، أبقى فيها ستة أشهر ثم أعود إلى هنا لأكمل مهامي.

بدا عليهم الانبهار التام بما يقال، وهم يظنون أنهم يعملون بجد، قال ماكفلر بوجهه البارد:

– وهل وجدت هذا البديل، هل وجدت في عالمنا الحضاري هذا شخصًا يمكنه أن يكون جوالًا في العقول.

همس خوليوس وهو يمنح آدومان نظرة ما:

– نعم فعلت.

ارتعد آدومان من النظرة التي رآها، وخفض وجهه إلى حيث النار الدافئة أمامهم.

تبسم ماكفلر وكارل، هنا قال خوليوس وهو ينهض:

– لقد جُعنا، ألن تطعمونا؟ إنه من المهم أن يكون للمرء أصدقاء كي يحافظ على سلامة تفكيره، ولكن في المقام الأول عليه أن يحسن اختيارهم، وأنتم خير رفاقٍ لبعضكم البعض، حافظوا على متانة علاقتكم هذه.

قال آدومان:

– أنت محق، لم أفهم معنى الأصدقاء حتى جربتهم.

نهض كارل وصار يعد الشواء وهو يضحك:

– نحن نعتبر أصدقاء بالفعل، سيد خوليوس أنت الدخيل الوحيد بننا، فأنت أكبر منا بكثير.

قطب آدومان وقال بجدية:

– أليس لديك حصيلة لغوية أفضل من هذه؟! بعض الاحتـــرام سيكون جميلًا.

ضحك خوليوس وقال:

– لن يتغير كارل.

بدأ ماكفلر يقطع السلطة قائلاً بتحليل بسيط للموقف:

– أنا أعتبر السيد خوليوس أبًا روحيًّا للجميع في المؤسسة، إنه الأكثر خبرة في المجال الخاص، وآدومان وكارل صديقان مهمان لي.

زفر كارل وكأنه يستسلم:

– أوه حسنًا أنا أيضًا أعتبركما كذلك، حينما تكبر وتكون ولدًا ثريًا فإن الأشخاص العاديين يكون لديهم معك هدف واحدٌ من اثنين، فإما يتعرفون إليك كي يحصلوا على المال والراحة معك، أو يخشونك بسبب صِلاتك وعلاقات والديك فيهربون في الاتجاه المعاكس، حياة صعبة يا رجل، لقد عايشت الوحدة وعايشتني.

للحظة شعر الجميع بأنهم يفهم بعضهم البعض، أنهم جزء من بعضهم البعض، مرت ليلة العشاء تلك على ما يرام، وكان الضحك الذي تلى ذلك عالياً وكارل يقص عليهم بعض مغامراته في مختبر الطب حيث كان والده يحاول إجباره أن يصبح طبيبًا، بينما يريد أن يكون تقنيًّا في المؤسسة، انتهى أوار النار وتشارك كل اثنين معًا في خيمة.

******

كان خوليوس يستعد للرقود بينما آدومان يجلس في منامته يراقبه وكأنه يراه للمرة الأولى، كانا يعملان معًا منذ خمس سنوات الآن، ولم يعرف عنه قط كل تلك التفاصيل، رباه لن تعرف الناس حتى يكشفوا لك حقيقتهم، فإما تحبهم وإما تبتعد.

تنبه خوليوس وهو يمشط شعره إلى نظرات آدومان فقال مقتضبًا:

– فيمَ تأملك هذا؟ هل ستأكلني؟

ضحك آدومان فتعليقات خوليوس غريبة مثله:

– سيدي، لن أفعل، فقط مصدوم من كونك تمثل كل ذلك التاريخ العريق، لكنك لا تتحدث عنه لأحدٍ قط.

– وقد تحدثت اليوم فقط لأخبرك أنني منذ الآن وصاعدًا سأبدأ بالاعتماد عليك في عملنا الخاص، حيث إنني لم أعد صغيرًا، مدة سباتي كفراش تطول كل عام.

– هل تعني الوقت الذي تأخذ فيه إجازتك السنوية، هل كنت تذهب لسبات؟

– نعم مع كل الفراش الذين من نوعي، لكنني الآن وأنا في الخمسين لم أعد قادرًا على أن أنهض من سباتي بالسرعة ذاتها، ولهذا فحينما يطول الأمر عليك أن تباشر في عملنا الخاص فأنت بارع تمامًا فيه، خذ معك كارل أو ماكفلر لأنهما تقنيان بارعان ويحافظان على الأسرار، سأعود بعدها لأكمل معك المسير لا تقلق.

بدا آدومان أنه فزع من الحقيقة بين يديه ولكنه لم يتردد بأن يقول:

– نعم سيدي، سوف أكون عند حُسن ظنك ولن أخذلك ألبتة، شكرًا على ثقتك بي.

تبسم خوليوس، وهذا من الأمور شديدة الندرة، ثم استلقى على الفراش ففعل آدومان الشيء ذاته ثم تبادر إلى ذهنه سؤال فقال:

– سيدي لقد كان كارل دائماً يردد: أيها الوطواط، ولم أفهم لم ينعتني بذلك، أنت عرفت أنني كذلك أعني بشكلٍ روحي، فكيف عرفت هذا عني؟

قال خوليوس بصوت هادئ يملؤه النعاس في ظلام تلك الخيمة ورائحة التراب الرطب تحتهما تمنح المرء شعورًا بالحميمية:

– أتذكر حينما أتيتنا زائراً للمكتب كي تقدم أوراقك؟

– نعم سيدي، لقد نظفت لك مكتبك وغادرت حاملاً معي ملف عملي هاهاها، كان الأمر مضحكاً.

– يومها غادرت أنت وبحثت عن ملفك فلم أجده ألبتة، عدت للمترل مفكراً كيف يمكنني أن أجد ذلك الشاب فقد كان الأكثر أهلية لتلك الوظيفة، وحينما خلدت للنوم، رأيتك في منامي، كنت تجلس مع أخيك الكبير في حضنه، وكنت وطواطاً صغيراً تبكي، قلت لي:

– سيد خوليوس إنني ضائع، لقد خسرت قدوتي وأنا بلا قدوة أو نور، إن الضياع يلتهمني.

بينما أخوك يبدو وكأنه صورة قديمة لشخص ما يجلس بلا حراك على كرسي عتيق، استيقظت من فوري مصدوماً مما أرى، لم يزرني في عقلي أحد قط سوى السيد جيليان، فهو الوحيد الذي تحدث إليَّ عبر عقلي، ولكن طوال تلك السنوات التي خلت، كان مروري في عقول الآخرين أمرًا مُسلمًا به، حتى رأيتك في عقلي فقد كنت تجلس في مكتبي على كرسي السكرتير وخيال أخيك يتراقص من خلفك،

عرفت حينها أنني وجدت ضالتي، أبحث عنه منذ سنوات طويلة، ولأجل هذا لم أوظف أي شخص في مكتبي بالرغم من السنوات الطويلة التي خدمت فيها في المؤسسة.

كان آدومان يحدق في وجهه، أنا زرت السيد خوليوس في عقله، كيف يحصل أمر كهذا حتى إنني لا أتذكر؟

قال خوليوس وهو يغمض عينيه:

– لا تتفاجأ هكذا، إن اليأس يفعل بالناس أمورًا رهيبة، كنت في حاجة ماسة إليَّ، ولن أكذب فقد كنت في حاجة ماسة إليك، عمت مساء.

حينما كاد آدومان يجيبه وجده يتوهج عدة مرات قبل أن تظهر شرنقة غريبة من تحته وتلفه مثل طفلٍ رضيع لفته من كل جانب واختفى وجهه تحتها وحينما هدأت. اختفت الأضواء الصادرة منها، كان آدومان يحدق في ذعر مما يشهد، حينما مد يده:

– سيدي، هل أنت بخير؟

لمس الشرنقة فتلاشت تمامًا وأمست غبارا.

لم يبق منه شيء، هكذا غادر فجأة من حيث جاء، مر وقت قبل أن يستوعب آدومان حقيقة أنه حان موعد سباته السنوي، فسالت دموعه متأثراً لما يرى، إلا أنه لم يتبادر إلى ذهنه أنه سيغادرهم اليوم،

كم كانت ليلة لا تنسى، خوليوس أخبره بالحقيقة قبل أن يغادر لكي يكون جاهزًا لكل شيء بعد اليوم.

غطى فراشه بالغطاء الخاص به الذي يعبق برائحته، ثم همس:

– حان الوقت كي ترتاح سيد خوليوس لقد فعلت الكثير مسبقًا، سنكون في انتظارك.

ثم خلد للنوم بصعوبة وهو يعود بذاكرته لليوم الأول الذي التقيا فيه.

في اليوم التالي أخبرهما كارل وهم في طريق العودة أن خوليوس يجب أن يأتي للغابة كي يستطيع أن يغادر منها إلى حيث بلاده التي لا يعرف أحد كيف يصل إليها، عادوا واجمين وحزينين بيد أن كل واحدٍ منهم كان جاهزًا لمواجهة الحياة بقلبٍ من حديد، صلب واثق.

obeikandl.com

الفصل الأخير

قهوة ساخنة

كان قد مر على غياب السيد خوليوس عدة أشـــهر لم يعتـــد آدومان على عدم وجوده ولكنه كان يقوم بعمله بجدية وأصبح هـــو والآخران أصدقاء حقيقيين، فقد كانوا يتعاونون بشكلٍ متجـــانس في عملهم ويساعد بعضهم البعض في حياتهم اليومية، كان آدومان يسير متجهًا إلى المكتب وهو يكلم أمه عبر الهاتف:

– أماه، أخبري أخي أنه إن لم يغادر حالاً للمدرسة فسوف أعود لأدق عنقه.

obeikandl.com

تحدث قليلاً معها، ثم دخل المؤسسة تقابل في طريقه مع ماكفلر الذي كان يتشح بالسواد فقال:

– دائمًا لديك هذا التأثير، أنت تصيبني بالقشعريرة يا رجل، قل شيئًا حينما تظهر في وجهي هكذا.

توقف ماكفلر قليلاً وقال بعد أن فكر مليًا:

– أهلا.

لم يصدق آدومان برودة هذا الشاب فقال له:

– أحسنت صنعًا، هذه بداية جيدة.

تبسم ماكفلر وشعر أنه أنجز، ثم اتجه إلى البوابة وهو يرتدي خوذة الدراجة النارية الخاصة به ليبدأ جولاته الصباحية.

توجه آدومان إلى المقهى في منتصف البهو الهائل الحجم، وهناك وجد كارل يكوم شعره فوق رأسه ويصيح بهذا وذاك، فقال له:

– فقط لأنك مالك المقهى، تذل موظفيك، إنك صغيرٌ على أن يكون لديك موظفون.

قال كارل:

– الحسد مصيبة يا رجل، أخبرني كيف يجري العمل؟

آدومان وهو يأخذ الكوب:

– ياه ، لا بأس بالعمل، سأراك في موعد الجلسة.

غادر إلى الدور الرابع، وهناك سار يسلم على رفاقه في القسم حتى وصل إلى المكتب، اليوم سوف يحضر عدد من الطلاب الجدد الذين قد ينضمون إلى المؤسسة يومًا ما في حال كانوا محظوظين.

شم رائحة زكية مألوفة له أشاعت في نفسه الراحة المباشرة، اتسعت عيناه لمجرد الفكرة وفتح باب المكتب بقوة ليجد السيد خوليوس بجلاله وجماله ودفئه يقف عند آلة القهوة يعبث بها وقد نسي كيف تعمل:

– تبًا، في كل مرة أعود يجب أن أتعلم كيفية عمل هذه الأدوات كلها من جديد.

تبسم آدومان وأوصد الباب مفكرًا: متى عاد؟

همس مسروراً:

– سيدي، مرحبًا بعودتك إلينا سالمًا.

التفت خوليوس إلى الخلف، وقطب حالما رأى أن آدومان ازداد طوله قليلاً ليقترب من المترين، فاستدار للجانب الآخر وقال بحدة:

– افعل شيئًا مفيدًا، لا توجد قهوة هنا، كيف كنت تعيش؟

رفع آدومان كوبه وقال:

– آخذها من كارل كل يوم.

تأمل خوليوس وجه آدومان حينما أصبح بالقرب منه، ولاحظ أنه كبر قليلاً وبدا يظهر عليه النضج، شعر بالفخر لذلك، لقد اشتاق لرؤيته ورؤية الجميع هنا، ولكن الموت أهون عليه من أن يعترف لهم بذلك، لا مجال للعواطف.. هكذا يذكر نفسه.

كان آدومان قد جهز القهوة ثم صب منها كوبًا والتفت إلى خوليوس قائلاً:

– إنني أكثر من سعيد لرؤيتك، لم يكن المكان كما هو بدونك.

احمر وجه خوليوس وأخذ الكوب عنوة وتظاهر بأنه لم يسمع شيئًا، فهو معروف بأن لديه درعًا مضادًا للمديح والعواطف الجياشة، دومًا هذا موضوع للتسلية بالنسبة لآدومان بحيث يرمي له بكلمة أو اثنتين ويراقب ردود أفعاله، خوليوس لم يكتشف هذا العبث الطفولي بعد.

بقي آدومان يتأمل ملامح خوليوس في ضوء الصباح، وحينما لاحظ خوليوس ذلك دفعه من كتفه:

– توقف عن هذا، هيا أطلعني على المستجدات بدل هذا العبث، لا بد أنك قضيت وقتًا مرحًا في الهراء مع أصدقائك الحمقى.

جلسا إلى المكتب.. رص آدومان عددًا هائلًا من الملفات وأطل من خلفها قائلاً:

– هذا كله كان في انتظارك، أنهيت ما استطعت منه والباقي تركته لحين موعد عودتك.

جرع خوليوس بعض القهوة وبدأ في التصفح، منح هذا آدومان الفرصة ليلاحظ رائحته الزكية التي تعبق في المكان، ربطة العنق المائلة والشعر المتطاير هنا وهناك، وبعض الأقلام المتراصة في شعره، ثم عويناته المتزلقة عن برج أنفه الفاخر.

تبسم وشعر بالراحة وكأن والده عاد، فنهض من تلقاء نفسه وقبل رأسه ثم عاد للجلوس دون أن ينطق بأية كلمة.

رفع خوليوس عينيه إليه وقد امتلأ بالحب والسعادة، شعر أنه عاد للتصرف كما كان يفعل في الماضي بكبت مشاعره عن الآخرين، كان راضيًا وحنونًا حينما همس:

– دمت سالماً يا بُني، حتى أنا أيضًا اشتقت إليك وللبقية، يسرني أنكم جميعًا بخير.

أشرق وجه آدومان لما سمع ولم يكد يجيب على ذلك حتى فُتح الباب ودخل كارل يحمل المرطبات بحماسة يعقبه ماكفلر في يده علبة كعكة كبيرة وهو يقول ببرود:

– سمعنا أن السيد خوليوس عاد.. صحيح؟

قطب خوليوس لمنظرهما الغبي، بينما فقد آدومان حماسه وقال بملل:

– نعم لقد عاد، هيا تفضلا ولا تضيعا وقتنا، سأسمح لكما بدقيقتين. دخل الشابان ثم لحق بهما معظم الموظفين في المؤسسة مما جعل آدومان يشعر بالانزعاج تمامًا فقد كان يريد بعض الوقت لنفسه معه ليسأله عما فعله هناك، لكنه يفهم تماماً فرحة الموظفين لعودته، كان الجميع هنا في حبور وضحك، وهذه المرة وافق خوليوس على أن يحتفل معهم للمرة الأولى، تجمهروا في المكتب ليحتفوا بعودة الفارس الغامض الذي يعود دومًا من خلف قرص الشمس من مكان بعيد، ليعلم كل يوم شخصًا جديدًا كيف يتحرر من زنزانة العقل الخاصة به، ثم ينطلق في السماء.

obeikandl.com